
روايات مصرية للجيب
45
فانتازيا
تشي
د. أحمد خالد توفيق

إن جرس المحطة يدق ، والبخار يتصاعد من مدخنة القطار .. والمرشد الملول الذى يرشدها فى أنحاء (فانتازيا) يقف نافد الصبر على باب القطار .. فلنتخذ مقاعدنا بسرعة ..

لقد حان موعد قصة أخرى ..

١- الواقع هو الواقع ..

حقًا لماذا لا يتغير الواقع أبدًا ؟ لماذا لا تتبدل الوجوه ولا تتغير الشوارع ولا تختلف الأماكن ؟ (فانتازيا) علمتها كيف لا يبقى الشيء على حاله أكثر من دقائق .. وكانت (عبير) الحالمة الكبرى تتوق إلى نوع من التغيير .. كيف يتحمل البشر الآخرون ألا توجد (فانتازيا) في حياتهم ؟ ربما يصنعونها في خيالهم .. لكن ربما تقرأ مجلة قديمة مع الأحداث .. هذا يختلف حتمًا عن أن تعيش مع الأحداث بالمعنى الحرفي للكلمة : يرد عليك (جيمس بوند) ويختبرك (سيبويه) ويفحمك (سارتر) وينقذك (سوبرمان) ..

لماذا لا يتغير الواقع أبدًا ؟ الحقيقة أنه يتغير بلا انقطاع لكن إلى الأسوأ .. الناس تشيخ والشوارع تضيق والأماكن تفقد سحرها .. حتى الطعام .. ترى هل كان للمانجو هذا المذاق في الماضي ؟ هل كان الشليك (الفراولة) مجرد ثمار حمراء لزجة ؟ كان المانجو كائنًا حيًا يقمع المكان والزمان ويعلن عن نفسه بقوة .. وكانت الفراولة تجربة حياة ..

كانت (عبير) تفكر في هذه الخواطر وهي تداعب طفلتها .. الشيء الوحيد الذي تعرفه ويتغير للأفضل .. إنها

تزداد حسناً ولطفاً .. إنها تتبدل من لحظة لأخرى بلا انقطاع ، وكل لحظة أفضل مما سبق ..

إذن (عبير) تحيا لسببين : طفلتها و(فانتازيا) ..

★ ★ ★

فى الآونة الأخيرة بعد عودتها من عالم النحاة وجدت (عبير) نفسها تقرأ فى السياسة .. لا تدرى السبب فهى اعتادت أن تقرأ للتسلية لا أكثر ، وحتى قراءاتها فى التاريخ كانت لما يمنحه لها من جو القصص .. وقد بدا غريباً عليها أن تجد أية تسلية فى السياسة أو الاقتصاد ، لكنها استطاعت أن تنفذ إلى ذلك الخيط القصصى الواهى فيهما وأن تجد بعض التسلية .. السياسة فى النهاية هى دراما تصادم الإرادات ..

قرأت بعض الكتب العتيقة من الستينات حينما كانت الاشتراكية هى موضة العصر ، ثم السبعينات عندما صارت مهاجمة الشيوعية هى الموضة .. كلا .. لم تقرأ (نهاية التاريخ) لـ (فوكوياما Fokoyama) أى إعلان ميلاد العولمة وهى موضة التسعينات ؛ لأن أسعار هذه الكتب كانت فى تصاعد لا تسمح به ميزانيتها ، بينما هى تبتاع ما تريد من على الرصيف أو من سور الأزبكية بسعر زهيد ..

ألا بارك الله في الكتب القديمة ! لولاها لما قرأت حرفًا .. لقد تعودت بشكل غريزي أن تهرب متى رأت أن غلاف الكتاب صقيل أو أن طباعته حديثة توحي بسعره الذي يجمد الدم في العروق ..

وقد اعتادت أن تحمل معها أحد هذه الكتب العتيقة إلى العمل حيث تختلس نظرة من وقت لآخر إلى صفحات الكتاب المتوارى في الدرج .. لسبب ما يعامل المصريون من يقرأ بشك مريب .. أما إذا كان يقرأ كتابًا سياسية فالشك يتحول إلى يقين ! لذا تقرأ خلسة بينما هي تراقب الصبية يلعبون (حاصد الأرواح) أو (نبوءة الدم) أو (مهنة الحرب) .. لم تكن تفهم أي شيء من هذه الألعاب الجديدة وقد بدا لها عالمًا شديد التعقيد .. كل شيء يزداد صعوبة حتى الألعاب .. دعك من العناوين الدموية في حد ذاتها .. وبعد هذا يتساءلون في الغرب من أين يأتي العنف ؟ هؤلاء القوم يتمتعون ببراءة غير مسبوقة ..

أحيانًا كان (مراد) يدنو منها ليسألها :

ـ « ماذا تقرئين ؟ »

ـ « أقرأ كتابًا .. »

فيضحك ويركل الأرض بقدميه معبرًا عن طرافة الدعابة ، ثم يعاود السؤال :

- « أعرف أنه كتاب .. لكن ما اسمه ؟ »

تقول وهى تنظر للدرج :

- « (عن الحرب) .. كتاب لمفكر استراتيجى اسمه .. اسمه .. (كلاوزفيتز) .. »

فيحاول نطق الاسم عدة مرات ، ثم يسألها ساخرًا :

- « لماذا تقرئين هذا الكلام الفارغ ؟ »

- « كى لا أسمعك ! »

بالطبع يبتلع هذه الإهانة وينهض .. كان يزداد غيظًا منها كل يوم فلو استطاع أن يحطم رأسها لفعل ..

لماذا لا تهيم به حبًا ؟ هذه إهانة عنيفة .. الأنثى الغبية هى التى تعرفنى لفترة كافية ثم لا تبدأ فى نظم الأشعار عنى .. ولا تقضى الليل ساهرة مفكرة فى ..

ولكن .. هو يعرف .. أنها تتظاهر باللامبالاة بينما هى تحترق .. هو متأكد من هذا .. كل الفتيات يعرفن كيف يشعرنك أنك سمج لزج ممل ، بينما هن يحلمن بك طيلة الوقت ..

كان متأكدًا من هذا ، وهذا ساعده على ابتلاع معاملتها القاسية الجافة ..

لكن (عبير) كانت تفكر .. تفكر في الصيغة التي ستتحول لها هذه القراءات السياسية .. لا تعرف لكنها متأكدة من أنهم في (فانتازيا) يعملون جاهدين لإعداد حلمها الجديد .. ينقبون في لاوعيها وتحت قشرة المخ ليستخرجوا ما لديها من خبرات ..

الآن المسرح ينصب والماكياج يوضع للممثلين ..

كل ما عليها هو أن تغلق عينيها وتشغل (دى جى ٢) ..

سوف تأتى الإجابة حالاً ..

صور كتير .. ملو الخيال
وألف مليون احتمال
لكن أكيد ..
أكيد .. أكيد ..
ولا جدال ..
جيفارا مات موتة رجال ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

٢ـ العملية رقم ٦٠٠

ـ « أبلغوا القيادة فى (فاليجراندى) أن بابا معنا ! »

وصلت الرسالة إلى القومندان (زنتينو Zenteno) فى (فاليجراندى) بـ (بوليفيا) فلم يصدق ما يسمعه .. طلب تأكيد الرسالة ثم دوت صيحات الفرح فى المكان .. بابا معنا ! هذا مذهل !

بعد قليل تصل رسالة أخرى تقول بدلاً من التأكيد المنتظر :

ـ « بابا متعب ! »

كانت هذه هى الشفرة المتفق عليها .. بابا هو (جيفارا) و(معنا) معناها أنه سقط فى الأسر .. طبعًا (متعب) معناها أنه جريح .. لقد خاض (جيفارا) معركته الأخيرة فى (كويبرادا دل يورو) وهزم ..

(جيفارا) أسير وجريح ..

(جيفارا) الأسطورى فى قبضة رجالنا ..

★★★

أربعة جنود يحملون (جيفارا Guevara) الجريح على محفة لمسافة سبعة كيلومترات .. بينما يمشى (سارابيا) رفيق كفاحه البوليفى مقيد اليدين خلف الموكب .. جو الخريف الجميل يتسرب للرئتين والفكرة المفعمة بالشجن أن هذا هو آخر خريف تراه يا (جيفارا) .. ربما آخر نهار كذلك .. هناك فى (لا هيجيرا) ألقى بالأسيرين فى المدرسة القديمة لأنها المكان الوحيد الذى يصلح سجنًا ..

بلدة بائسة هى لا يزيد عدد سكانها على أربعمائة .. بيوت منخفضة متواضعة .. لا ترى سيارة واحدة .. المدرسة ذاتها لا تحوى أكثر من غرفتين، بينما نوافذها مغطاة بالخوص ..

هذا هو (جيفارا). الأسد الحبيس مقيد اليدين خلف ظهره وهو يرقد وسط القذارة والوحل والظلام الدامس .. فقط أشعل له أحد الجنود غليونه الزجاجى ودسه بين شفتيه .. هكذا بدا منظره مرعبًا كأسد ينفث الدخان من منخريه .. لا بد من أن يمزقك الأسى لرؤيته بهذا الشكل حتى لو كان ألد أعدائك .. لا تنس كذلك أن هذا الأسير الراقد فى الطين كان أهم وزراء كوبا والرجل الثانى فيها ..

يلتقطون الصور له .. تلك الصور التى لم يرها أحد قط لأن وكالة الاستخبارات المركزية احتفظت بها حتى اليوم ..

يرفع رجل المخابرات المركزية الأمريكية (والت رستو Rostow) سماعة الهاتف ويتصل بالرئيس (جونسون) يخبره أن البوليفيين ظفروا بـ (جيفارا) .. الصداع الدائم للولايات المتحدة .. الرجل الذى لم يكن له هدف فى حياته إلا القضاء على نفوذها .. إن رجال المخابرات المركزية فى حقبة الحرب الباردة لهم جميعًا ذات الشكل كأن هناك مصنعًا ينتجهم بالدستة .. العوينات والنظرة الباردة والتظاهر باللطف .. يمكنك أن ترى شبهًا لا بأس بـه مـع (ديك تشيني) نـائب (بوش) ..

ويبقى السؤال : ماذا نفعل به ؟

- « نحاكمه ونعدمه .. »

- « فكرة حمقاء هى .. سوف يبدو أمام العالم بطلاً .. »

- « إذن نعدمه حالاً »

- « نعم .. لكن بشرط أن نذيع أنه توفى متأثرًا بجراحه فى المعركة .. ولا كلمة عن إعدام بغير محاكمة .. »

(جيفارا) يطلب مقابلة ناظرة المدرسة ..

الشابة الفاتنة السمراء (جوليا كيرتز) تدخل وهى تخفض عينيها .. كانت تتوقع أن ترى وحشاً مكبلاً بالأصفاد والزبد والدم يسيلان من شدقيه .. هذا ما قالوا لها أن تتوقعه ..

لكنها رفعت عينيها فى بطء فوجدت وجهاً حزيناً وسيماً فيه كبرياء وأسى ورقة .. تذكرت وجه المسيح فى الصور التى تعلقها فى دارها .. بالفعل هذا هو أقرب شبه ورد لذهنها ..

قال لها بصوته العميق الهادئ :

- « إن مدرستك تشبه الكهف .. كيف تدرسين هنا ؟ عندنا فى (كوبا) يستحيل أن توجد مدرسة كهذه .. »

قالت بصوت راجف :

- « إن بلدنا فقير .. »

- « لكن حكامكم يملكون سيارات مرسيدس .. ولهذا جئت من بلدى كى أحرركم .. »

- « بل جئت لتقتل جنودنا .. »

قالتها واندفعت راكضة خارجة من الغرفة .. لكن عينيه ظلتا تومضان فى ذهنها عدة عقود ، كما يظل قرص الشمس يطاردك لعدة دقائق بعد دخولك مكاناً مظلماً ..

فى ذات الوقت صارت هذه القرية البائسة أهم قرية فى العالم .. طائرات هليكوبتر تهبط وتقلع وجنرالات يصلون وأميرالايات ورجال مخابرات مركزية أمريكية .. لا أحد يفهم ما يحدث ..

لكن الأخبار تصل إلى الكولونيل (زنتينو) بأن الأوامر صدرت لتنفيذ العملية رقم ٦٠٠ .. طبعًا أنت فهمت أن العملية رقم ٦٠٠ هى قتل (جيفارا) ..

دخل الضابط (رودريجز) إلى حيث كان الأسد الجريح مقيدًا، ولم يكن يدخن لأن ضابطًا اسمه (إسبينوزا) كان يتوق إلى امتلاك غليون .. هكذا دخل إلى جيفارا وضربه ثم انتزع الغليون من بين أسنانه ! قال له (رودريجز) :

– « الأوامر البوليفية هى أن أقتلك .. بينما الأمريكيون يصرون على أن تظل حيًا للتحقيق معك .. »

قال (جيفارا) بصوته العميق الذى يصاحبه صفير الربو :

– « الموت أفضل لى .. كان يجب ألا أقع أسيرًا منذ البداية .. »

وبدا كأن الرجلين متحمسان للفكرة متفهمان لها .. فقط أحدهما سيكون القاتل والآخر سيكون القتيل ..

إنها العاشرة مساء التاسع من أكتوبر عام ١٩٦٧ ..

وفى غرفة الضباط يسحبون أعواد القش لمعرفة من يقتل (جيفارا) .. الرقيب (تيران) كان يعرف منذ البداية أنه سيسحب العود الأقصر لأنه نحس كما عرف عن نفسه .. بالفعل .. هو ذا العود الأقصر .. إن ثقته بسوء حظه لا حدود لها .. هكذا اتجه إلى غرفة المدرسة خافتة الإضاءة ونظر إلى (جيفارا) ..

قال الرجل المقيد بينما عيناه الحادتان لا تطرفان :

ـ « لا تفعل إلا بعد أن أنهض على قدمى .. هلم .. اقتلنى .. أنت فقط تقتل رجلاً »

يريد القول إن قتل رجل سهل .. لكن من المستحيل قتل كل الشغب والضوضاء والتحدى الذى يثيره اسم (جيفارا) ذاته .

أصيب الرقيب بالذعر وعاد لزملائه .. ظل هناك لحظات يحاول استعادة شجاعته ثم من جديد عاد إلى الأسير .. ومن دون أن ينظر له هذه المرة أطلق النار .. أطلق على الأماكن التى يمكن أن تصيب فيها رجلاً لا تراه .. خصره .. حنجرته .. فى هذه اللحظة تحركت النزعة السادية الموجودة لدى الجميع فراح الجنود الذين كانوا متهيبين يفرغون طلقاتهم فى الجسد الساكن ..

فقط قبل أن يبدأ الحفل قال الضابط (بيريز) لرجاله :

ـ « أطلقوا الرصاص كما يحلو لكم ، لكن لا أريد طلقة فوق الخصر ! أريد أن يظل وجهه سليماً ! »

* * *

عينى عليه ساعة القضا
من غير رفاقه تودعه
يطلع أنينــه للفضــا
يزعق .. ولا مين يسمعه
يمكن صرخ من الألم
من لسعة النار ف الحشا
يمكن ضحك .. أو ابتسم ..
أو ارتعش .. أو انتشى
يمكن لفظ آخر نفس
كلمة وداع لاجل الجياع
يمكن وصيه .. للى حاضنين
القضية ف الصراع ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨ (*)

★ ★ ★

(*) القصيدة المستعملة هنا لحنها الشيخ إمام ، وقد قام مجهول بتركيب كلمات أخرى على اللحن ذاته فيما بعد لوداع جمال عبد الناصر فى الأغنية الشهيرة (الوداع يا جمال يا حبيب الملايين)

ناظرة المدرسة (جوليا كيرتز) تسمع الطلقات فتهرع إلى الغرفة التى امتلأت بدخان البارود ، لتجد الجثة الغارقة فى الدماء .. انفجرت باكية .

ويستدعون القس (روجيه شيلر) عند الظهر . يدخل الغرفة الرهيبة ليجد امرأة من الفلاحين تحمل دلو ماء وتقوم بتنظيف وجه (جيفارا) من الدم والوحل ..

الصورة التى حفظها العالم فيما بعد للوجه الوسيم الذى يحمل شبح ابتسامة ساخرة ويبدو موشكًا على فتح عينيه بعد نوم مريح .. بعد ثلاثين عامًا قالت هذه المرأة البائسة :

« كان أكبر خطأ ارتكبه قاتلوه أنهم سمحوا بالتقاط الصور له .. لقد بدا كصور المسيح ولا شك أن الشباب فى كل أرجاء العالم لاحظوا هذا الشبه ! »

لم تكن المرأة البسيطة تهذى .. لقد انتشرت بين الفلاحين البوليفيين القصص عن (مسيح فاليجراندى) .. أو القديس مبتور اليدين .. ولسوف يردد الشباب شعار :

No lo vamos a olvidar!

أى (لن نترك ذكراه تُنسى)

وفيما بعد سيقول الكاتب الفرنسى (سارتر) :

- « (جيفارا) هو أكمل كائن بشرى فى عصرنا الحديث ! »
طبعًا هو كان يتحدث من منطق وجودى بحت ..

على كل حال لم يكن هذا رأى (والت رستو) الذى اتصل بالرئيس الأمريكى ليقول له :

- « موت هذا الرجل مفيد .. وسوف يقتل النوازع الثورية الرومانسية فى أمريكا اللاتينية ، وسوف يجهض أحلام من يريدون أن يكونوا رجال حرب عصابات يومًا .. لن ينسى العالم أن رجال (البيريه الأخضر) من جنودنا هم الذين دربوا البوليفيين .. »

جـاء أخـو (جيفـارا) إلـى بوليفيا لتسلم جثـة أخيـه ، لكنهم قالوا لـه إن الجسد أحرق وإن الرماد مدفـون فـى مكـان مـا قـرب (فاليجرانـدى) .. الحقـائق تتضـارب بهـذا الصدد .. قيل إنـه دفن وقيل إنـه أحرق .. فيمـا بعد سوف يجدون هيكلاً عظميًا مدفونًا من دون يدين .. لقد بتروا يديه ووضعوهما فى الفورمـالين كـى تتم مطابقـة بصماتـه فيمـا بعد ..

الحقيقة التى أدركها الجميع هى أن الحكومة البوليفية ظلت تخاف (جيفارا) حتى بعد وفاته .. لا أحد يريد أن يبقى جثمانه ذكرى لما فعلته ، ويتحول هو إلى بطل ..

بعد ثلاثين عاماً تم البحث عن عظامه وتم تحليلها بأسلوب تحليل DNA. هكذا تأكد الجميع من أنها عظام (جيفارا) ذاته .. وقد نقلوه إلى كوبا ليدفن فى ضريح فى (سانتا كلارا) .. المكان الذى يحمل أعظم أهمية له ..

لقد مات جيفارا ..

* * *

مات المناضل المثال

يا ميت خسارة على الرجال

مات الجدع فوق مدفعه جوه الغابات

جسد نضاله بمصرعه .. ومن سكات

لا طبالين يفرقعوا .. ولا إعلانات ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

* * *

٣ - أين أنا ؟

العام ٢٠٠٥ ..

(عبير) لم تكن تعرف شيئًا من هذا كله أو تعرف ظلالاً مبهمة من القصة فى لا وعيها ..

كانت قد رأت فيلمًا عن (جيفارا) اسمه (تشى) فى برنامج نادى السينما ، قام ببطولته (عمر الشريف) ، وقد كان الفيلم أمريكيًا ؛ لذا فعل كل شىء ممكن كى يظهر (جيفارا) كسفاح مخبول دفع ثمن جرائمه .. فيما عدا هذا هى لا تعرف عن الرجل الكثير ..

لقد تركها المرشد هناك فى هذا البلد الغريب .. لا تعرف أين هى ولا ما هو مطلوب منها .. كل ما تستطيع تخمينه هو أنه بلد عربى ما .. يمكنها أن تتبين رجلاً يلبس عقالاً ويضع غطرة ويقود قطيعًا من الغنم .. هذا على مسافة مائتى متر على الأقل ، فيما عدا هذا المكان محايد تمامًا لا يعطى أية علامات .. أين هى ؟ ما المغامرة التى تنتظرها هنا ؟ لا تعرف ..

العقال والغطرة سمة الجزيرة العربية والشام .. ربما بعض بدو الصحراء فى مصر .. هل هى فى المملكة العربية

السعودية ؟ الأردن ؟ هل هى فى لبنان ؟ لا تدرى .. لكن الجو معتدل نسبيًا لا يوحى بالخليج عامة ..

وماذا تلبسه ؟ لم يكن بوسعها أن ترى نفسها طبعًا لكنها تلبس سروالاً من الجينز وخصلات شعرها سود .. تلك إذن من المرات النادرة فى فانتازيا التى يكون شعرها أسود .. لقد اعتادت أن تكون شقراء فاتنة حتى صارت هذه (عدة الشغل) بالنسبة لها ..

على صدرها صدرية غريبة الشكل .. غريبة الملمس لو شئت الدقة .. أقرب إلى الدرع .. وهى غير قابلة للانثناء .. بعد قليل فهمت أنها رأت هذا المشهد مرارًا فى نشرات الأخبار .. إنها سترة واقية من الرصاص .. أما الشعار على صدرها فهو CDN لا تعرف إن كانت هذه شبكة فى أرض الواقع أم هى من شبكات فانتازيا .. المهم الآن أنها مراسلة وأنها فى أرض ما بها طلقات رصاص ..

وهذا الغبار ؟

دققت النظر أكثر فأدركت أنها دبابة .. دبابة عصرية رشيقة أنيقة تندفع عبر الأفق وسط الصحراء .. كأنها سكين يشق هذا الغبار ..

الغريب أن الأغنام لم تبد أية علامة على الذعر والراعى لم يفر برغم أن الدبابة مرت على بعد أمتار منه .. واستطاعت (عبير) أن ترى العلم الذى يرفرف وراء الدبابة .. أشرطة ونجوم و .. العلم الذى وصفه (فرانسيس سكوت كى) فى تلك الليلة الظلماء بينما القصف يدور فى مواقع قواته المشتبكة مع البريطانيين .. ثم رأى العلم المميز يرتفع فانفعل وكتب قصيدة (علم النجوم اللامعة) ..

هذا علم أمريكى على دبابة أمريكية فى أرض عربية .. لا يجب أن تكون عبقريًا كى تفهم أنك فى العراق !

★ ★ ★

وقفت (عبير) حائرة .. لم تتصور لحظة أن تكون هنا فالأمر يدخل فى نطاق الكوابيس ولا علاقة له بالفانتازيا .. لن تجد هنا إلا المعاناة والألم والغيظ ..

ثانيًا ما المطلوب منها فى هذا السهل الممتد ؟ لا ترى من حولها مصورين أو أى شخص يساعدها .. هل ضلت طريقها إذن ؟ هذا هو التفسير الوحيد ..

فى اللحظة التالية رأت المزيد من الدبابات الأمريكية .. كانت مندفعة فى الاتجاه ذاته وبذات السرعة ، وإن استطاعت تمييز

موسيقا الهارد روك تنبعث من مكبرات صوت .. لم تر جنوداً بهذا المزاج الرائق من قبل .. الحقيقة أن هذه طريقة قتال معروفة لدى الأمريكيين منذ حرب فيتنام ..

الآن صار السهل كله يعج بتلك الزواحف العملاقة ، وهدير جنازيرها مرعب مع الدخان المختلط بالغبار يتصاعد منها .. الأرض تهتز تحت قدميها ..

وفجأة دوى الانفجار .. استدارت مسرعة لترى فوجدت إحدى الدبابات تنزف دخانها الأسود .. إصابة مباشرة لكن خبرتها الحربية لا تسمح لها بمعرفة إن كان هذا لغمًا أم قنبلة .. فقط أدركت أن المكان خال تماماً وأن الراعى وغنمه قد تبخروا ..

وعلى الفور اتجهت مجموعة من الدبابات نحو الشرق وهى تطلق النار فى جشع ..

قررت (عبير) أن تتوارى .. لم تجد إلا تلة مرتفعة قليلاً أسرعت وراءها وراحت ترمق ما يحدث ..

فى اللحظة التالية قد تحركت معظم الدبابات نحو الشرق ، فوجئت بأن دبابة من تلك التى بقيت فى مكانها قد انفجرت ..

انفصلت بعض الدبابات متجهة نحو اتجاه الطلقة الأخيرة .. فى ذات اللحظة التى انفجرت فيها دبابة أخرى فى مكان آخر ..

هذه مراوغة إذن ! مراوغة بارعة حقًا .. إن مجموعة الدبابات الأمريكية قد خسرت ثلاث دبابات وتفرقت فى عدة اتجاهات ..

كانت مذهولة لم تثبت قدميها بعد على الأرض .. يشبه الأمر أن تصحو من النوم لتجد مشاجرة بين غرباء فى صالون دارك .. متى دخلوا ؟ لماذا يتشاجرون ؟ من هم ؟ لكنهم لا يردون عليك ولا يصغون لأسئلتك وتهديداتك أصلاً ..

أمامها ترى أعنف معركة رأتها فى خيالها أو فى (فانتازيا) عامة .. وقدرت أنها ستنال بالتأكيد جانبًا من الخير .. بحثت بين حاجياتها فوجدت راية بيضاء صغيرة .. لا بأس بهذا .. ستلوح بها ولسوف يفهمون أنها مراسلة وأنه لا دخل لها بهذا ..

رفعت يدها بالراية فقط لتجد أن يدًا صلبة قوية أمسكت بساعدها ، وسمعت من يهتف :

- « ماذا تفعلين يا حمقاء ؟ سوف يفجرون رأسك أولاً ! »

ثم شعرت بأنها تحمل حملاً إلى الناحية التالية من التل .. من أين يأتى هذا الصفير كله ؟ إنها تتمرغ على الرمال .. ثم هناك من يدس رأسها فى خندق صغير .. أوراق سعف نخيل توضع بكثافة فوق رأسها على سبيل التمويه ..

- « إن (البلاك هوك) قادمة حالاً .. »

قبل أن تتذكر ما هى هذه (البلاك هوك) أو (الصقر الأسود) سمعت صوت المراوح .. ثم رأت من بعيد تلك الصقور المرعبة تحلق فى السماء وتطلق الرصاص بجنون فى كل اتجاه .. لا يوجد اقتصاد فى الطلقات ..

قال منقذها أو خاطفها لا تدرى :

- « هذا هو الفارق الرئيس بين جندى القوات النظامية ورجل العصابات .. الأول يطلق الرصاص بلا حساب وكأنه ليس هناك غد .. الثانى يطلق الرصاص عند الضرورة وعلى هدف محدد .. »

رااااااتاتاتاتاتاااااااا !

مر خط الطلقات قريبًا جدًا منها .. ومرت الطائرة العمودية من فوق رأسيهما مبتعدة فرفعت (عبير) رأسها فى حذر لترى الطائرة تحلق على ارتفاع منخفض جدًا ، بينما يجلس جندى على الباب وقد دلى ساقيه للخارج ووضع بين فخذيه مدفعًا يشبه (المترليوز) .. هذا المشهد المألوف من أيام حرب (فيتنام) ..

قال منقذها وهو يعتصر ساعدها من جديد :

– « هيا بنا .. سنفر قبل أن يعود الكرة .. »

وانطلق يجرى خافضًا رأسه وهى خلفه .. وسرعان ما تواريا وسط مجموعة من المبانى المتهدمة .. الآن تفهم مصدر هذا الصفير .. إنه صدره الذى يبدو كأنه امتلأ بالعصافير .. هذه أسوأ حالة ربو قابلتها فى حياتها .. هنا فوجئت بأن نحو خمسة أو ستة رجال ملثمين يركضون معهما ..

نظرت إلى منقذها للمرة الأولى فرأت أنه ملثم كذلك .. لكن عينيه القويتين من فوق اللثام أخبرتاها أنه على الأرجح قائد هذه المجموعة الصغيرة ..

بين المبانى يبدل الرجال ثيابهم بسرعة .. ينزعون اللثام ويضعون العقال ويلبسون الجلابيب ليبدو منظرهم أقرب إلى الفلاحين .. ثم يثبون إلى سيارة (فان) واقفة هناك .. وسرعان ما كانت السيارة تنطلق عبر الطرقات شبه الخالية ، حيث ترى من حين لآخر شاحنة محترقة أو دبابة تحولت إلى خردة ..

* * *

مكان آخر وسط الخرائب ..

هذه المرة يقف الرجال وينظرون لها حائرين .. هى أيضًا كانت حائرة .. ماذا بعد ؟

قال أحدهم :

ـ « يمكننا أن نتركها .. »

فقال آخر :

ـ « صارت تعرف عنا الكثير .. أعتقد أنه لابد من قتلها .. هذا قرار مؤسف لكنها سوف تتفهم دوافعنا ! بعض القسوة هى أقرب للرحمة ! »

مد منقذها يده إلى جيبه وأخرج أداة استنشاق من التى يستعملها مرضى الربو ودسها بين شفتيه وضغط .. استنشق بعمق وانتظر بضع ثوان .. بدت عليه الراحة ثم مد يده إلى سترتها وانتزع بطاقة صغيرة مثبتة هناك ، لم تلحظها (عبير) من قبل وتفحصها وقال :

ـ « اسمك (ماريا جونزاليس) .. مراسلة شبكة CDN .. أنت أرجنتينية ؟ »

إذن هذا يفسر الشعر الأسود .. إنها من أمريكا الجنوبية وإن لم تعرف عن (الأرجنتين) إلا أنها بلد (مارادونا) .. هل كان (مارادونا) أم (رونالدينيو) ؟

قالت في ثقة :

- « نعم .. »

الغريب أنها لم تلحظ إلا الآن أن لهجتها العربية كانت ذات لكنة إسبانية .. من الغريب أن لهجة منقذها كانت قريبة نوعًا من لهجتها وإن لم تفهم سبب هذا ..

قال أحد الرجال المتحمسين وهو يرفع بندقيته الآلية :

- « فلننته يا (سى عمارة) ! نحن لن نبقى هنا طيلة الوقت ! »

نظر له (عمارة) بعينين حادتين وقال :

- « إنها أرجنتينية .. ثم إنني لم أنقذها كي أقتلها بعد دقائق .. كان من الأفضل لها أن تبقى هناك إذن .. على الأقل كانت لديها فرصة للنجاة .. »

ثم نظر لها بعمق وقال :

- « سوف أعتمد على كلمة شرف منك .. هؤلاء الرجال يعتمدون على كلامي وهم لا يجازفون بالفضيحة أو خسارة بعض المال .. بل هم يجازفون بأرواحهم .. ما أطلبه هو أن يظل ما ترين سرًا .. هناك أمور يهمني أن تعرفيها لأنك مراسلة صحفية .. لكنك لن تنشري شيئًا إلا ما أسمح لك بنشره .. »

لم يكن لديها مجال للتردد فقالت راجفة :

ـ « أعدك .. »

وبدا لها أن الطلب أحمق .. هل يتوقع منها أن تقول العكس بينما البندقية الآلية مصوبة لرأسها ؟ ! ونظرت لملامحه بدقة أكثر .. كان وسيمًا له ملامح صلبة صارمة توحى بالكبرياء ، يحيط بوجهه شعر أسود فاحم ثائر يمتزج بلحيته كأنها كتلة واحدة .. متى رأت هذا الوجه من قبل ؟

قال لها وهو يخرج سيجارًا غليظًا من جيبه :

ـ « اتفقنا .. لنبدأ بإخبارك بالتقنية التى هاجمنا بها القافلة الأمريكية هذا اليوم .. إنها من ابتكارى وأسميها (الرقصة الموسيقية) .. يقوم رجال العصابات بتطويق الرتل الزاحف من أربع جهات .. كل مجموعة تتألف من خمسة مقاتلين .. ثم نطلق النار من اتجاه ما على الرتل فيتحرك نحو هذا الاتجاه .. من ثم تهاجمه المجموعة الثانية من جهة أخرى .. مع تكرار الهجمات يتشتت العدو وتنهار روحه المعنوية .. إن حرب العصابات تعتمد بالكامل على المباغتة لأننا نتعامل مع جيش نظامى ، ولا يمكن أن نسمح بتساوى الخسائر .. »

ثم أخرج من جيبه مطواة وقطع السيجار إلى نصفين أعاد أحدهما إلى جيبه ودس الثانى بين أسنانه .. فقالت له :

- « هل أنت واثق من أن حالة صدرك تتحمل هذا ؟ »

- « لقد صار الربو أسلوب حياة بالنسبة لى .. أما السيجار فقد تعلمنا أن دخانه يطرد البعوض .. »

وسرعان ما تصاعد الدخان الكثيف قوى الرائحة .. أمسك بالسيجار المشتعل وتشممه فى حنان غريب وغمغم :

- « رائحة الوطن ! »

ما معنى هذا ؟ أى وطن يتحدث عنه ؟

* * *

٤ـ تشى ..

ابتعد الجميع فى رعب بينما المجذوم يشق طريقه عبر ممر المستشفى وهو يعوى بصوته الغليظ الذى يميز مرضى الجذام .. يسهل لك أن تفهم لماذا كان القدماء يعتبرون الجذام عقابًا عادلاً من الآلهة وأن المجذوم يستحق ما يجرى له ..

تلك الرائحة الكريهة .. الرجل يمد يديه اللتين تساقطت أصابعهما ويرتجف بينما هو يرمق الجالسين بعين لا ترى .. وجه الأسد المخيف يحدق فى الأطباء الشبان .. لكن لا أحد يجرؤ على النهوض لمساعدته ..

نهض الطبيب الأرجنتينى الشاب (إرنستو جيفارا) ووضع ساعده القوى على كتف البائس .. ثم اقتاده إلى فراش الفحص ..

كانوا يعرفون ولع هذا الشاب بالجذام .. من الغريب أن تفكر فى بعض هوايات الشباب لكنها الحقيقة .. كان يهتم به وقد صمم على أن يصير طبيب أمراض جلدية كى يخفف آلام هؤلاء المنبوذين .. إن الجذام هو لعنة البلدان الحارة .. لعنة أمريكا اللاتينية الدائمة ..

الحقيقة أن الشاب (جيفارا) كان من ألمع الأطباء الشبان فى مستشفى (بوينس أيرس) ..

ولد (جيفارا) عام ١٩٢٨ لخمسة أخوة وكان يعانى الربو منذ طفولته .. فى ذلك العصر قبل أن يتم اكتشاف موسعات الشعب والأدوية الحديثة كان الربو عذابًا مقيمًا إن لم يكن خطرًا داهمًا ..

انتقل الأب بالأسرة إلى الجبال باعتبار هذه هى الطريقة الوحيدة لعلاج ابنه ..

برغم هذا ظل الفتى عنيدًا وبرع فى الألعاب الرياضية كأنه يخرج لسانه لهذا الداء .. وكأنه يبرهن على براعته فى الفرار من السجن الذى يحيط برئتيه ..

كانت روحه قلقة أبدًا .. وزملاؤه يذكرون كيف أنه جاب كل أمريكا اللاتينية تقريبًا على دراجة أو بطريقة (الأوتوستوب) .. فى هذا الوقت كان الأوتوستوب اختراعًا جديدًا ولسوف يصير موضة فى أواخر الستينات وأوائل السبعينات ثم يُنسى ثانية .. برع كذلك فى لعبة الشطرنج .. وأحيانًا كان يهتم بالشعر خاصة أشعار الشيلى العظيم (نيرودا Neruda) ..

كانت روحه قلقة تشتهى الفرار إلى آفاق أخرى لكنه كان آخر من يعرف أين توجد تلك الآفاق ..

* * *

فى حياة كل إنسان لحظة لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها ..

وكانت لحظة (جيفارا) الأولى هى اللحظة التى قرر فيها أنه سوف يصير ثائرًا .. كانت فكرة الأخطبوط الأمريكى الملتف حول أمريكا اللاتينية تؤرقه ..

بالنسبة للأمريكيين الشماليين (اليانكى) كما يسمونهم كانت أمريكا اللاتينية كلها تفاحة سقطت من أسبانيا أثناء رحيلها .. وهم لا يملكون أية نية لتركها لأحد آخر حتى أصحابها الأصليين .. هكذا نجد أن تاريخ أمريكا اللاتينية هو تاريخ تدخل وكالة المخابرات المركزية .. انقلابات فى انقلابات وانقلابات على الانقلابات ، والعالم الغربى يطلق على هذه الحكومات اسمًا ساخرًا هو (حكومات جمهوريات الموز) .. لم يكن من الممكن لأى بلد فى أمريكا اللاتينية أن يفلت من قبضة اليانكى الصارمة ، هكذا صارت هناك صورة معقدة من الفقر والقمع السياسى والفساد والشركات الأمريكية العملاقة والطغاة الذين يلبسون ثيابًا موشاة بالنياشين التى منحوها لأنفسهم .

كانت هذه الصورة تؤرق (جيفارا) ..

تؤرقه وهو يسافر إلى المكسيك ..

تؤرقه وهو يتدرب على أساليب حرب العصابات فى مزرعة بـ (مكسيكو سيتى) .

تورقه عندما قابل شاباً ثائراً ملتحياً يرتدى الخاكى ولا يكف عن تدخين السيجار .. كان هذا الشاب كوبياً وقد اتجه مع رفاقه إلى المكسيك للتدريب .. لماذا ؟ لأن (كوبا) ترزح تحت ألعن طاغية يمكن تصوره هو (باتستا Batista) ، وهذا الرجل مع رفاقه من الثوار يحلمون بالعودة إلى كوبا والإطاحة بالطاغية ، والمكسيك أرض محايدة ..

ماذا كان اسم هذا الشاب الثائر ؟

- « اسمى (كاسترو) .. (فيدل كاسترو) .. »

هكذا نشأت صداقة بين رجلين كتب لها أن تدوم طيلة حياة (جيفارا) .. كلاهما كان ماركسياً وكانت الموضة هى الماركسية فى ذلك الوقت وكلاهما قرأ بعناية أفكار (ماو تسى تونج Mao Tse - tung) الزعيم الصينى الذى كان حجة فى حرب العصابات ..

حضر (جيفارا) مجموعة من المحاضرات لجنرال اسمه (ألبرتو بايو) حصل فيها على معرفة مركزة مكثفة بالتكتيك الحربى .. وعلى يدى هذا الرجل تعلم الرماية حتى أجادها ، لكن الأمور لم تكن صافية تماماً لأن البوليس المكسيكى اعتقل هؤلاء جميعاً .. وفى فترة السجن القصيرة

التى دامت شهرين توطدت العلاقة أكثر بين (جيفارا) و(كاسترو)..

وحينما عرف (جيفارا) أن (كاسترو Castro) ذاهب إلى كوبا لبدء الثورة قرر أن يذهب معهم..

كيف تذهب يا (جيفارا) وأنت الأرجنتينى مع كوبيين؟

كانت هذه اللحظة الأولى التى ولدت فيها صورة (المقاوم العالمى) الذى يظهر فى كل مكان.. كل المقهورين هم شعبك.. كل المستعمرين والطغاة أعداؤك.. وقد أطلق على نفسه اسم (تشى).. (تشى) كناية عن أى مواطن أرجنتينى، مثلما يكنى أى طفل بـ (حمادة) وأى بورسعيدى بـ (أبو العربى) وأى ألمانى بـ (فريتز)، لكن المكسيك لم تكن مكانًا رحبًا على الإطلاق..

لقد تسربت أخبار أن هناك حملة اعتقال أخرى قادمة، هكذا قرر الرجال الفرار إلى كوبا.. أعدوا يختًا اسمه (جرانما) - الجدة - ونقلوا إليه كل ما يلزم من سلاح وثياب ومدافع وأطعمة.. ثم تم الفرار تحت جنح الليل فى نوفمبر عام ١٩٥٦..

- «كنا نفتش عن الأدوية التى تعالجنا من دوار البحر لكننا لم نجد.. كان وجه كل منا محتقنًا من الغثيان، وكنا

نضع أيدينا على البطون .. وبعضنا دفن رأسه فى الدلاء لأن القىء لا يسمح له بوقت كاف يرفع فيه رأسه .. »

لقد كانوا ثمانين رجلاً .. وقد داروا حول الساحل عبر مياه (جامايكا) بغرض التضليل .. متجهين إلى (أورينتى) ..

فى ظلام الليل يدور اليخت (الجدة) حول الساحل الكوبى بحثًا عن مكان للإنزال .. لا شىء يهديهم إلا الضوء من منار (سانتا كروز) .. أحد ضباط البحرية من الثوار وقف على ظهر اليخت يبحث عن ضوء المنار، لكن البحر كان شديد التقلب مما جعله يسقط فى الماء، ووسط الأمواج كان من المستحيل أن تجده ثانية ..

عندما وصل الثوار إلى الشاطئ أخيرًا رأوا طائرات (باتستا) قادمة لتحيتهم كما يجب .. هكذا فروا فى الظلام ولم يجدوا الوقت الكافى لحمل أى شىء ..

وفى الخامس من ديسمبر بلغوا منطقة اسمها (أليجريا دى بيو) فى حقل قصب قرروا أن يبيتوا فيه ليلتهم .. على الأقل يمكنهم أن يرووا ظمأهم بأعواد قصب السكر ..

لم يدركوا كيف ولا متى جاءت أول طلقة تصفر جوار الرءوس .. ثم انهمرت الطلقات كأنها سيمفونية .. وتساقط كثيرون ..

- « كان الأمر يشبه المشاهد التى تراها فى صندوق الدنيا .. رجال يصرخون ويطلبون العون .. محاربون يحاولون الاختفاء وراء أعواد القصب النحيلة .. وفجأة بدأ حقل القصب يحترق ! لقد أدركت أن هذه هى اللحظات الأخيرة لى .. »

كانت هذه لحظة الاختيار الأهم فى حياته ، لأنه وجد عند قدمه صندوقين .. صندوق ذخيرة وصندوق مؤن طبية .. أيهما تختار يا (جيفارا) ؟.. اختار صندوق الذخيرة وكأنه اختار مستقبله .. لقد ترك الطبيب فى مكان ما هناك وسط أعواد القصب فى (أليجريا دى بيو) ..

كان ينزف بغزارة من جرح فى صدره وعنقه .. لكنه استطاع بشكل ما أن يبتعد ..

فر بعض الثوار من الكمين المخيف ، ومشوا تسعة أيام كاملة لا طعام لهم إلا العشب الأخضر وأعواد الذرة الجافة .. هناك داء غريب يصيب أقدام الماشين فى هذه الأرض ويجعل المشى شبه مستحيل .. القرويون هناك يطلقون عليه (مازا مورا) .. هذا الداء كان من حلفاء الطاغية ..

كانوا يقابلون القرويين الذين لم يخفوا تعاطفهم معهم .. ومنهم عرفوا أن (كاسترو) حى وأنه فر إلى جبال (سييرا مايسترا Sierra Maestra) الأسطورية ..

الحقيقة أن القوات النظامية لم تبق منهم إلا خمسة عشر رجلاً .. هؤلاء فروا إلى جبال سييرا مايسترا حيث تمركزوا هناك وبدأت تقنيات حرب العصابات التى شرحها (جيفارا) بعد ذلك ..

المهم أن تكسب عطف الفلاحين .. المهم أن تستغل كراهيتهم للحاكم ..

بما لا يزيد على ٢٢ بندقية قام هذا الجيش المثير للشفقة بعد شهر ونصف بالهجوم على (لابلاتا) .. يجب القول إن كل نصر كان يضاعف أسلحتهم لأن الاستيلاء على أسلحة العدو جزء مهم من عملهم ..

- « فى (أرويو دل انفرنو) كنا نسرق البيض من الدجاجة ثم نترك لها بيضة واحدة كى لا تتوانى عن مهمتها .. فى ذلك الصباح سمعنا صوت الطلقات فقررنا أن نلتهم البيضة الأخيرة ما دام وجودنا هنا قد انتهى ! »

وفى العام ١٩٥٧ استولى الثوار على معسكر (أوفيرتو) بعد معركة هى أشرس ما واجهوه منذ نزلوا إلى كوبا .. وصار (جيفارا) الذى كان يعنى بالجرحى لأنه طبيب من قواد الوحدات المهمين .. ثم صارت له وحدة منفصلة .. هذا ساعده كثيراً لأن الحكومة لم تكن مهتمة

بأمره بل ركزت كل جهدها على قوات (كاسترو) .. هكذا بدأ (جيفارا) ينشئ وحدات ثابتة .. أنشأ لشدة الغرابة مصنعاً للأحذية ومصنعاً للذخيرة ومحطة إذاعة !! !

فى الوقت ذاته راحت الإذاعة تدعو العمال للإضراب فى كل كوبا ..

الحرب تشتعل .. (باتستا) يتوحش .. معركة مفزعة فى قرية (لاس مرسيدس) اضطرت الثوار للتراجع .. وتستمر الحرب سجالاً حتى فقدت قوات (باتستا) عشرة آلاف رجل وستمائة قطعة سلاح بينها دبابة سليمة ..

كانت شجاعة (جيفارا) مذهلة ، وقد قرر (كاسترو) أن يراقبه خفية لأنه كان أقرب إلى الاندفاع ، وقد راح الجميع ينتظرون نبأ وفاته فى أية لحظة .. ثم أسند له مهمة خطرة معقدة هى غزو (لاس فيلاس) .. تخريب جسور ومحطات كهرباء .. حرب .. حرب .. قتل .. قتل .. إعدام للخونة .. لقاءات مع مراسلين أجانب .. العالم كله يرى صور هؤلاء الثوار الملتحين مدخنى السيجار ..

حدثت المعجزة عام ١٩٥٩ وفر (باتستا) الطاغية .. وسقطت (هافانا) فى يد هؤلاء الملتحين القادمين من الجبال ..

ثمانون رجلاً صاروا خمسة عشر .. ثم استطاع هؤلاء أن يستولوا على بلد ! وكما كتب (جيفارا) فيما بعد :

- « أعتقد أن نواة صلبة تضم ثلاثين إلى خمسين رجلاً إذا توافرت لها الأرض الصالحة للعمل، تستطيع أن تبدأ ثورة مسلحة فى أى بلد من أمريكا اللاتينية »

* * *

صرخة جيفارا يا عبيد

فى أى موطن أو مكان

مافيش بديل .. مافيش مناص

يا تجهزوا جيش الخلاص

يا تقولوا ع العالم خلاص

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

* * *

٥ ـ سنتحرك عند الفجر ..

يجلس الرجال حول النار بينما شاة مشوية تدور فيسيل منها الدهن .. وتذكرت (عبير) أنها لم تأكل منذ ساعات طويلة ..

كانوا الآن وسط الخلاء خلف جدار مهدم .. لا تعرف أين هم بالضبط لكنها قدرت أن وجودهم هنا عمل أحمق .. ما تعرفه هو أن أفراد المقاومة العراقية يذوبون وسط الزحام .. منهم المدرس والحرفى والمهندس فى الصباح ، فإذا جاء المساء وضع كل منهم لثامه وانطلق .. أما هنا فالأمر يبدو واضحًا مريبًا .. مجموعة من الرجال المسلحين شديدى المراس يطل التحدى من عيونهم .. فماذا عساهم أن يكونوا ؟ جمعية محبى جمع الطوابع ؟ يمكن لأى طفل أن يعرف أنهم متمردون ..

إنهم يتصرفون كأنهم يقاتلون فى الأحراش أو الجبال .. هذه هى البيئة التى تناسب أسلوبهم هذا ، لكنها لا تصلح لبلد سهل عامر بالبشر كالعراق ..

الجبال ! معها حق ! هذا هو الحل الصحيح !

سألت ذلك الرجل الملتحى المصاب بالربو :

- « هل (سى عمارة) هو اسمك ؟ »

هز رأسه أن نعم .. ثم أضاف :

- « صار اسمى منذ جئت هنا .. »

- « ولهجتك الغريبة هذه .. هل أنت عربى ؟ »

هز رأسه موافقًا :

- « من أصول مغربية .. »

لعل هذا يفسر الاسم .. (سى) بمعنى (سيد) تستخدم فى أقطار المغرب العربى .. هناك لمسة لا بأس بها من الثقافة الأسبانية لدى المغرب العربى فلعل هذا يفسر لهجة الرجل الغريبة ..

لكنها لا تبتلع هذا التفسير تمامًا ..

كانت الشاه قد نضجت فمد أحدهم يدها إلى اللحم الساخن الحارق ، وراح يمزق منه ويضع فى أطباق من ورق .. وصل طبق إلى يد (عمارة) فناوله لها من دون أن يتكلم ..

قالت فى صدق :

- « كل أنت أولاً .. إن قاعدة (النساء أولاً) لا تصلح مع المقاومة .. »

- « لم أكن من المولعين بالأكل قط .. »

الحقيقة أن رائحة الدخان أثرت فيه بوضوح، وبدا عاجزًا عن إخراج أنفاسه، مع الأصوات المنبعثة من صدره كأنه براد شاى يغلى وليس إنسانًا ..

ثم أخرج نصف سيجار من جيبه وأولجه بين أسنانه وراح يطلق الدخان فى كثافة .. يبدو أنه لم يسمع قط عن وجود علاقة بين التدخين والتهاب الشعب ..

بم يذكرنى هذا الوجه ؟ إنها تذكر طريقة التدخين هذه ..

قالت ضاحكة :

- « هل تعرف ؟ أنت تذكرنى بـ (جيفارا) فعلاً .. »

ارتبك نوعًا ثم قال فى شرود :

- « أى شاب ثائر يذكر الناس بـ (جيفارا) .. حتى أن بعض الناس يطلقون على أى ثائر (جيفارا) كأنها صفة وليست اسمًا .. على فكرة تلك الصورة الشهيرة التى ظهرت على كل تى شيرت فى العالم وفى غرفة كل شاب، خاصة بعد طباعتها بأسلوب الشاشة الحريرية Silkscreen التى تلغى درجات الرمادى فلا يبقى إلا الأسود الصريح على خلفية حمراء .. هذه الصورة التقطها (ألبرتو كوردا Korda)

المصور العبقرى .. كان (جيفارا) يقف شارد الذهن وراء (كاسترو) خلال أحد خطاباته ولم يلحظ الكاميرا ، هكذا أسرع (كوردا) باقتناص الصورة الخالدة .. التى صارت أشهر صورة فى القرن العشرين .. » .

ـ « وأنت تشبهه ! »

ـ « هذا يسعدنى .. تهمة لن أنفيها وفضل لن أنكره »

بعد انتهاء الطعام التف الرجال حول (سى عمارة) .. كانوا مثقلين وبدا أنهم موشكون على السقوط صرعى النوم .. ثنائية الإرهاق وامتلاء المعدة الشهيرة التى تعمل أفضل من أى مخدر .. لكنهم تماسكوا وراحوا يصغون له ..

كان يتكلم بصوت خفيض وبتلك اللكنة شبه الأجنبية التى لم تفهم (عبير) سببها .. الآن تتذكر اللكنة المغربية ذات التردد الموسيقى المتكرر وحروف القاف التى لا تنتهى .. هذه ليست هى .. على كل حال سوف تفهم كل شىء فيما بعد ..

قال الرجل وهو يضغط السيجار بين أسنانه :

ـ « لا يمكن أبدًا إنزال الهزيمة بجيش شعبى يضم العمال والفلاحين المتلهفين على تحرير بلادهم .. لقد برهننا على

أن القوات الشعبية قادرة على هزيمة الجيوش .. والدرس المهم هنا هو أنه ليس من الضرورى انتظار قيام وضع ثورى .. يمكن خلق هذا الوضع .. ولنتذكر أن المناطق الريفية هى البذرة الأولى لقيام الثورات .. إن أية حكومة تأتى إلى الحكم عن طريق شكل من الاقتراع حتى لو كان مزوراً ، ولو حافظت ولو قليلاً على مظهرها الدستورى ؛ فإن خلق حرب عصابات ضدها قد يكون شبه مستحيل .. لهذا يجب أن تُدفع هذه الحكومة دفعاً إلى خرق الصفو الأمنى أولا وبالتالى إلى خلق وضع ثورى .. »

ونفث سحابة دخان كثيفة جعلت الكل يسعل وأضاف :

- « المستهزئون يطلقون على عملياتنا تعبير : اضرب واهرب .. هذا هو الحال فعلاً وهذه هى استراتيجيتنا .. نضرب ونهرب .. مرة ومرتين وثلاث مرات .. هذا يحقق الهدف .. أن نحطم العدو ونحرز النصر .. صحيح أن لذة الحرب غير موجودة لكن من قال إن رجال العصابات يمكنهم مواجهة جيوش نظامية ؟ »

ثم أخرج من جيبه خارطة مهترئة متآكلة الأطراف للعالم وقال :

- « هذه هى خارطة العالم .. »

ثم أشار بطرف السيجار إلى الولايات المتحدة .. فجأة تصاعد الدخان من الثقب الذى أحدثه فى الخارطة لأنه ضغط أكثر من اللازم بسبب الغل .. لقد تحولت الولايات المتحدة إلى الولايات المثقوبة ..

أطفأ الدائرة المشتعلة بإبهامه وقال :

- « يجب أن تتذكر أن هناك دولة إمبريالية واحدة تعيش على امتصاص دماء الملايين الكادحة فى باقى العالم .. الفقراء فى (باكستان) و (زامبيا) و (نيبال) و ... و ... يموتون جوعًا كى يضمنوا لليانكى أن يأكلوا عددًا أكبر من الديكة الرومية فى عيد الشكر .. إن أطفالنا يموتون كى ينال اليانكى المزيد من الـ (.. كولا) وشطائر الكلاب الساخنة ! »

كلاب ساخنة ؟ تقلصت أمعاء (عبير) لسماع هذه العبارة ثم تذكرت أنها الترجمة الحرفية لتعبير (هوت دوجز Hot dogs) .. طبعًا السبب هو أن (الكلاب) معناها (الأمعاء) فى العامية الأمريكية .. لكن هذا الكلام غريب جدًا وأقرب إلى الكتب التى تقرؤها والتى تعود للستينات من القرن العشرين .. كتب أيام الحرب الباردة وحرب فيتنام .. هى قرأت بعض كتب التسعينات وتعرف أن لغة الكلام تغيرت وأن أحدًا لم يعد يتكلم بهذه الطريقة ..

النقطة الثانية هى أنها تعرف أن المقاومة فى العراق ذات طابع إسلامى واضح .. لغة الخطاب الدينى واضحة وحتى أسماء المقاتلين ذاتها .. هذا الرجل يستخدم لغة أقرب إلى كلام الماركسيين .. ما معنى هذا ؟

انتهى الدرس فكوم (عمارة) جربنديته تحت رأسه .. ابتلع قرصًا من الـ (زاديتين) وكبسولة ما ومد قدميه الطويلتين وقال للرجال :

- « الآن ننام .. سوف نتحرك عند الفجر إلى (الكوت) .. هيا .. »

وعلى الفور ارتفع صوت شخيره مصحوبًا بالصفير فى رئتيه ..

ظلت (عبير) ترمق النار فى شرود .. نظرت إلى الرجال الملتفين حولها ، فرأت كل واحد منهم قد تكور نائمًا .. ظلت جالسة لفترة ثم رفعت عينيها فرأت شابًا يجلس ذات جلستها ويرمق النار بذات الشرود .. تحركت فى حذر حتى جلست جواره .. لم يقل شيئًا .. هكذا سألته :

- « عراقى ؟ »

هز رأسه أن نعم ..

- « هل يمكنني أن أعرف اسمك ؟ »

- « (منذر) .. يمكنك استعمال هذا الاسم مؤقتًا .. كنت مهندسًا ثم قررت أن أنضم للمقاومة .. »

أشارت إلى الرجل النائم وقالت :

- « هو ليس عراقيًا .. »

- « بالضبط .. »

- « وليس مغربيًا .. »

- « بالتأكيد .. »

- « إذن من هو ؟ »

نظر لها الشاب طويلاً ثم قال :

- « لا أدرى لماذا أقول هذا الكلام لك ، لكن فيك شيئًا يوحى بالثقة .. إنه أرجنتينى .. كان يجب أن تفهمى هذا إذا كنت أرجنتينية .. »

- « ينكر هذا بإصرار .. فليس بوسعى أن أشق صدره لأعرف .. »

- « إنه أرجنتينى لكنه عاش فترة طويلة فى كوبا .. »

- « وما دخله باحتلال العراق ؟ »

- « إنه مواطن عالمى يعتبر الإمبريالية عدوه فى كل بلدان الأرض .. يمكن أن تريه غداً فى فلسطين .. لقد وجد أن آخر شعبين محتلين فى العالم هما الشعب العراقى والفلسطينى .. لهذا تسلل إلى العراق وقام بتكوين هذه الخلية الثورية ، وتعلم العربية بشكل لا بأس به .. لا أحد يعرف بوجودنا ولم يخطر لأحد قط أن تكون هناك فصيلة مقاومة يسارية بقيادة كوبى فى العراق اليوم .. معظم عملياتنا تنسب إلى فصائل المقاومة العراقية الأخرى لكن هذا لا يضايقه لأنه يبعد العيون عنا لفترة .. »

- « (سى عمارة) .. هل هذا هو اسمه الأصلى ؟ »

ابتسم فى خبث وقال :

- « طبعاً لا .. إنه أقرب اسم عربى وجده لاسمه الأصلى .. (تشى جيفارا) ! »

- « نعم .. نعم .. لكن ما اسمه الأصلى ؟ »

- « قلت لك إن اسمه (إرنستو تشى جيفارا) .. »

- « نعم .. أعرف أنه يستعمل هذا الاسم الكودى تيمناً بذلك المناضل الأرجنتينى .. لكن ما اسمه ؟ »

أطلق زفيرًا طويلاً وتنهد وقال :

- « سبحان الله .. أقول لك إن هذا اسمه .. »

- « إذن فأبوه مجنون .. إن إطلاق اسم (مارلين مونـرو) علىّ لن يجعلنى فاتنة .. »

ثم نظرت إلى الرجـل النـائم وصدره يعلو ويهبـط .. مـع صوت الصفير المستمر من شعبه الهوائية الضيقة .. لحيتـه تنتفش حول وجهه .. حذاؤه العسكرى ..

وبدأ ريقها يجف ..

لكن ..

إنه هو فعلاً ! هذا الرجل لا يشبه (جيفارا) ..

إنه هو !!!

* * *

٦ ـ ثائر فى كل مكان ..

إنه العام ١٩٥٩ ..

تحقق النصر وسيطر هؤلاء الثوار على (كوبا) ..

أثناء الكفاح وفى جبال (سييرا مايسترا) عرف (كاسترو) معدن ذلك الأرجنتينى الباسل الذى انضم لهم .. هكذا قرر أن يكافأه بعد النصر، ولهذا منحه الجنسية الكوبية ..

صار (جيفارا) هو الرجل الثانى فى البلاد ..

ثم تزوج (أليدا مارش) عام ١٩٥٩، وهى التى ستنجب له أربعة أطفال ..

لم تنته مكافآت (جيفارا) بعد .. لقد صار مدير بنك كوبا القومى، ووزير الصناعة ..

لكن (جيفارا) لم يكن مستريحًا وسط هذه الحياة السياسية الصاخبة .. الثائر الذى بداخله لم يعتد حياة الأمن والدعة .. لم يستطع أن ينام فى الفنادق الفاخرة بعد كل هذه الأعوام من النوم فى كيس نوم وسط الأحراش .. وقد لاحظ فى أسى زملاء كفاحه الذين ابتلعوا الطين فى

المستنقعات، وقد امتلكوا الآن السيارات الكاديلاك والسكرتيرات الحسناوات والمكاتب المكيفة بعيدًا عن طقس كوبا الحار الخانق .. كأنهم يجنون ثمار كفاحهم السابق وقد انتهت القصة عند هذا الحد ..

لم يكن ينام بين تدبير أمر الثورة بمزيج من الإخلاص والحزم الذى يبلغ درجة القسوة، وبين التأليف، وقد كتب عام ١٩٦٠ كتابًا عن حرب العصابات ترجمه الأمريكان ودرسوه بدقة، لن لا يعدو ملحوظات عامة غير منسقة .. كان يبشر بما يدعى (الإنسان الجديد el Hombre Nuevo) المستعد لمحاربة الاستعمار فى كل مكان .

- « يجب أن يصبح العلم الذى نحارب تحته هو خلاص البشرية .. بمعنى أن الموت فى فيتنام أو فنزويلا أو لاوس أو كمبوديا .. يجب أن يصبح أمرًا مرغوبًا فيه للأمريكى والآسيوى والأفريقى وحتى الأوروبى »

كانت هذه رومانسية زائدة بالطبع .. فمهما كانت حماستك للكفاح فلا شىء يمكن أن يقنعك بأن تذهب لتموت فى (كمبوديا) مثلا .. يجب أن تسيطر عليك فكرة أيديولوجية قاهرة .. فى ذلك الزمن كانت الماركسية .. اليوم تستطيع فكرة الجهاد الإسلامى أن تقنع شابًا سوريًا

أو مصريًا بأن يحارب فى أفغانستان أو العراق ويموت هناك .. الفارق هو أن هذا الشاب يموت وهو يطمع فى الشهادة والجنة ، لكن ما هى المبررات التى كانت تحرك (جيفارا) وأصحابه ؟

الغريب أن العدو المشترك للطائفتين هو الولايات المتحدة .. لهذا خطر لبعض الصحفيين الأمريكيين اليوم أن يربطوا بين (جيفارا) و(أسامة بن لادن) .. كلاهما ملتح يعيش فى الخلاء ويجيد حرب العصابات ، وكلاهما يكره أمريكا كراهية التحريم ..

* * *

كان (جيفارا) ميالاً للصين ، وجل ما يعرفه عن حرب العصابات مأخوذ من كتابات (ماو تسى تونج) .. لم يستطع قط أن يحب الاتحاد السوفيتى ، وقد شعر بأن هذه الدولة العظمى لم يتجاوز دورها دور بائع السلاح .. وأحيانًا بائع الكلام ..

وقد كان (كاسترو) عمليًا أكثر .. ضرورات السياسة تقتضى هذا ، لكن (جيفارا) الثائر الدائم كان يسبب له الحرج .. كيف تنشئ صداقة مع الاتحاد السوفييتى بينما أهم وزير فى حكومتك لا يكف عن مهاجمته ؟

فى الوقت ذاته كانت كراهية (جيفارا) للولايات المتحدة معروفة للجميع ، فهو لم يكن يحاول تهذيب ألفاظه عند الكلام عنها .. وعندما ذهب ليتكلم فى الأمم المتحدة رفض الأمريكيون أن يعطوه غرفة محترمة فى فندق ، هكذا لم يجد "هو والوفد الكوبى المرافق له إلا غرفة متواضعة فى حى الزنوج (بروكلين) .

لقد دهش العالم لرؤية هذا الكائن الغريب الذى يطيل لحيته ويقف أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة فلا يتورع عن إخراج المطواة ليقطع السيجار إلى نصفين ، ويحتفظ بنصف فى جيبه ، ثم يهاجم الولايات المتحدة بأعنف لغة ممكنة على أرضها ..

كان (جيفارا) قلقًا ..

وفى هذه الفترة بالذات بدأ يجوب العالم .. زار الهند ويوغوسلافيا واليابان .. ثم قرر أن يزور أنجح تجربة ثورية يعرفها فى الشرق الأوسط وهى التجربة المصرية .. لقد كان الكوبيون متحمسين لناصر إلى درجة أنه لو رشح ناصر نفسه هناك والكلام لجيفارا لفاز بأغلبية ساحقة !

على عكس هذا لم يكن (عبد الناصر) فى البداية متحمسًا لهؤلاء الشباب القادمين من أمريكا اللاتينية ، فقد

اعتبرهم تقليعة جديدة بلحيهم وثيابهم الخاكية والسيجار فى أفواههم ..

كان هذا هو العام ١٩٥٩ عندما جاء (جيفارا) لمصر بحجة دراسة تجربة مصر فى الإصلاح الزراعى .. وكان معجبًا بالطريقة العنيدة التى واجهت بها مصر ثلاث دول عام ١٩٥٦ .. صحيح أنها تلقت ضربة عسكرية قوية لكنها أصرت على الاحتفاظ بشىء وخرجت من القتال وهى تحتفظ به .. هل يوجد اسم آخر للنصر ؟

تكلم عن تعاون الاستعمار مع إسرائيل ، وأبدى ملاحظته الذكية عن أن القوى الاستعمارية أقدر على التعاون والاتحاد ونبذ الخلافات ، وصلاتها متينة بحيث تتصرف ككتلة واحدة .. بالفعل فى كل زمان ومكان نجد أن الشر أكثر ذكاء وإيجابية ونفاذ بصيرة ، بينما يتصرف الخير غالبًا بتخبط وسذاجة !

لو أن الأخيار امتلكوا ذكاء الأشرار وإيجابيتهم واتحادهم مرة واحدة ..

مرة واحدة فقط !

★ ★ ★

يا شغالين ومحرومين ..
ومسلسين رجلين وراس ..
خلاص خلاص .. ما لكوش خلاص
غير بالبنادق والرصاص ..
دا منطق العصر السعيد
عصر الزنوج والأمريكان
الكلمة للنار والحديد ..
والعدل أخرس أو جبان ..

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

* * *

٧ـ كيف عاد ؟

قال لها (منذر) وهو يعبث فى النار بغصن شجرة :

ـ « عندما دخلت أمريكا العراق شعرنا جميعًا بالضياع .. لأيام لم نعرف ما ينبغى عمله .. ثم بدأنا نفيق وندرك أن علينا أن نفعل ما يفعله أى شعب آخر : نقاتل .. تكونت مجموعات مسلحة عدة .. أفراد الجيش المنحل وقادته .. الإسلاميون .. نحن .. لكننا الذين لم نكن تابعين لفصيل معين كنا أقل الأطراف تنظيمًا وخبرة بالحروب .. معظمنا لم ير من قبل مسدسًا ولم يفجر قنبلة .. لهذا قمنا بعمليات لا قيمة لها وسط العمليات الضخمة التى ينفذها الآخرون ، والتى آذت الأمريكيين فعلاً »

ثم استدارت عيناه ببطء إلى الرجل النائم وأردف :

ـ « حتى جاء هو .. »

ـ « من أين جاء ؟ »

ـ « لا نعرف .. ولا نعرف كيف تسلل عبر الحدود .. ما عرفناه عنه أخبرتك به .. كان اسمه (تشى جيفارا) وقد تفاءلنا بهذا الاسم ، لكنه قال لنا إن علينا أن نطلق عليه

اسماً عربياً وليكن (سى عمارة) .. قال إنه يختلف عنا فى الوطن والجنسية والدين وكل شىء ، لكنه مثلنا فى شىء واحد هو مقت الإمبريالية .. والامبريالية تتمثل اليوم فى الولايات المتحدة .. لهذا انضممنا له وبدأنا ندرك أنه يعرف ما يفعله .. إنه بارع حقاً .. على الفور استقطب نحو خمسين رجلاً وبدأ يمارس هذه التكتيكات القتالية ، وفى اللحظات التى لا نقاتل فيها يثقفنا .. »

قالت فى حذر :

- « ألا ترى أن هذه بالضبط تقريباً قصة حياة (جيفارا) الأصلى .. ؟ »

قال فى تهكم :

- « تناسخ الأرواح ؟ لاحظى أننا مسلمون أو مسيحيون .. هذه النظرية لها محل لا من الإعراب هنا .. الأمر لا يتجاوز مناضلاً أعجب بـ (جيفارا) فتسمى باسمه واعتنق أساليبه »

نظرت للرجل النائم كلغز فى ضوء اللهب وقالت :

- « هناك تفسيرات أكثر عصرية .. »

★ ★ ★

البروفسور الصينى (زينج لى وان) لم يتخذ قط اسماً لهذه التقنيات التى يمارسها .. لقد أطلق على التجربة كلها اسم (الإيوجينيا الحديثة) .. وهو بهذا قد اقترب جداً من تفكير (عبير) ، لكن الرجل لم يعرف أنه يمارس سراً أول تجربة استنساخ فى التاريخ ..

كانت علاقات (جيفارا) بالصينيين ممتازة ، وبالتأكيد كان هناك من يعتبرونه قديساً من بينهم .. فقط كانوا يتمنون لو كان صينياً على طريقة (الحلو ما يكملش) .. وعندما صدر القرار السياسى بأن (جيفارا) لا يجب أن يموت كان السؤال الأهم هو (كيف ؟) ..

البروفسور الصينى العجوز عرف بوفاة (جيفارا) فى ذلك العام الحزين .. ١٩٦٧ .. لابد أنه علق صورة (تشى) وتحتها بعض الشموع وجلس فى الظلام يتأمل على الطريقة الكونفوشيوسية ..

بعد شهر جاء رجل مخابرات من (بوليفيا) حاملاً معه هدية صغيرة للبروفسور .. إن يدى (جيفارا) قد بترتا بعد موته وحفظتا فى الفورمالين ، وكان الهدف من ذلك مقارنة بصماته للتأكد من أنه مات فعلاً ..

رجل المخابرات كان يحمل معه طبقة رقيقة جداً .. مجرد سلخة من إبهام الرجل وقد حفظت في أنبوب اختبار ثبته بعناية إلى أعلى فخذه .. وقد حصل العالم الصيني على السلخة ولم يعرف أحد تفاصيل القصة بعد ذلك ..

لكن التجارب تمت في سرية تامة في مختبر عسكري قرب (بكين) .. ونحن لا نعرف التفاصيل العلمية المعقدة لما حدث .. فقط نقول إن الطب الصيني كان متقدماً أكثر مما حسب الغرب بكثير ..

لم يفكر العالم من قبل في هذا الاختراع الهائل إلا في قصص الخيال العلمي .. لكن جدلاً كبيراً دار من قبل حول (الإيوجينيا Eugenia) وهي الفلسفة التي ترمي إلى تحسين النسل البشري بشكل انتقائي، وقد لفظها العالم لأنه وجد أنها الطريق الملكي لاحتقار الأجناس والنازية والتفرقة العنصرية ..

لكن (زينج لي وان) كان يعرف ما يفعله وقد فعله بدقة وبراعة ..

لقد قام بإخلاء بويضة أنثوية من محتواها ثم نقل لها الصبغيات الموجودة في إحدى خلايا (جيفارا) .. ثم أجرى بعض التقنيات المستعملة مع أطفال الأنابيب . وفي النهاية تم نقل كرية الخلايا إلى رحم امرأة من الحزب قبلت أن تكون رحماً بديلاً ..

فى أغسطس ١٩٧٠ ولد الطفل الذى سيحمل اسم (تشى جيفارا) ، لكن هذا ظل سرًا .. على الورق كان اسمه (ريكاردو) ..

كانت الخطة محكمة .. إنهم قد ضمنوا الخلفية الجينية له ، لكنهم كانوا بحاجة إلى خلفية بيئية .. هكذا ينتقل (ريكاردو) الصغير إلى الأرجنتين ليربيه أبوان أرجنتينيان ويتأكدا من انه سيدرس الطب ، ومن أن الكتب التى ستقع فى يده هى ذات الكتب التى وقعت فى يد (جيفارا) الأصلى فى صباه .. حتى دواوين شعر (بابلو نيرودا) كانت موجودة جواره ليقرأها .. ثم جاء الوقت الذى أخبره فيه أبواه أن اسمه الحقيقى هو (أرنستو تشى جيفارا) ..

وعندما قال الفتى لأبويه أنه يرغب فى دراسة مرض الجذام ، وعندما قال طبيب الأمراض الصدرية إن (ريكاردو) سيظل يعانى الربو للأبد ، عندها أبرق الأبوان إلى (بكين) يزفان الأخبار المفرحة ..

لكن أحدًا لم يعد يهتم بهذا الموضوع .. لقد مات العالم العجوز ومات (ماو تسى تونج) وماتت الماركسية ذاتها .. لم يعد أحد يذكر هذه التجربة ، بل إنهم راحوا يتابعون فى شغف تجارب الاستنساخ فى العالم الغربى وهم لا يعرفون أنهم سبقوا الغرب بثلاثين عامًا فى هذا الصدد ..

لكن الأبوين كانا يتحركان بشكل آلى طبقاً لمخطط وضع لهما بمعرفة المخابرات الصينية منذ عام ١٩٧١ .. وقد كان راتبهما يأتى بشكل آلى من جهة ما ، لذا استمرا فى التنفيذ ..

على (ريكاردو) أن ينطلق ليستكشف أمريكا اللاتينية ، ثم عليه أن يقيم بعض الوقت فى كوبا .. للأسف لم يفكر الصينيون فى استنساخ كاسترو ، و (كاسترو) الأصلى موجود على كل حال .. لكن (كوبا) أفادته فى تعلم القتال .. عرف كيف يطلق الرصاص وكيف يفجر القنابل ويزرع الألغام ..

هذا صار مهيئاً لبدء مهمته ..

لم تتغير الصورة كثيراً على كل حال .. إن العالم ما زال مكاناً سيئاً كما كان أيام (جيفارا) الأصلى .. ربما أسوأ .. على الأرض ثلاثة بلايين نسمة يعيشون بدخل أقل من دولارين فى اليوم .. فى كل يوم يموت أربعون ألف طفل جوعاً .. أى أكثر من طفل فى الثانية .. هذه إحصاءات دقيقة موثقة ..

ما زالت الأرض مهيئة للثورة ..

★ ★ ★

صرخة جيفارا يا عبيد

فى أى موطن أو مكان

مافيش بديل .. مافيش مناص

يا تجهزوا جيش الخلاص

يا تقولوا ع العالم خلاص

أحمد فؤاد نجم ١٩٦٨

* * *

لم تعرف (عبير) كل هذه التفاصيل ، لكنها خمنتها ..

لقد صار الفتى فى سن الخامسة والثلاثين ، وهو يبحث عن استعمار ليقهره فى أى مكان . يبحث عن ثورة يشعلها وطغاة بدمرهم ..

لكن الأوضاع فى كوبا لم تكن تناسب بدء الثورة ، ولم تكن هناك فيتنام فى هذا العصر .. كان قد قرأ عن (فيتنام) وعرف رأى سميه (جيفارا) فيها .. كان (جيفارا) الأصلى يتمنى أن يتحول العالم إلى فيتنامات عدة كى ينزف الأمريكان حياتهم وقواهم وما لهم فيها .. وكما قال (هوشى منه) الزعيم الفيتنامى الأسطورى : « أنا سعيد لأن الأمريكان يغزون بلادنا وأرجو أن يرسلوا المزيد من القوات .. فلما تتاح لنا فرصة كهذه كى نغرس مخالبنا فى لحمهم الحى ! »

وكانت هناك دولة مناسبة جدًا هي العراق .. هناك يمشى الأمريكان في الأزقة وينامون في ثكناتهم .. هناك يمكنه البدء ..

كانت على وشك الغياب في النعاس عندما فتح (جيفارا) عينيه القويتين ، ولم ينهض من مكانه .. فقط اتجهت عيناه إلى (منذر) وقال في حزم :

ـ « أنت تتكلم كثيرًا ! سوف تُحرم من السلاح لمدة أسبوع ! »

هب (منذر) في ذعر .. حاول أن يتكلم ، لكن (جيفارا) انقلب على جانبه لينام على الجانب الآخر منهيًا المناقشة ..

سألت (عبير) الفتى المذعور :

ـ « كيف ؟ كيف سمعك ؟ »

ـ « ش ش ش ش ! »

قالها وتمدد على جانبه وأعطاها ظهره .. واضح أنه أغلق باب المناقشة كذلك ..

لم يكن هذا الـ (جيفارا) ينام إذن .. إن هو إلا نوع من الرقاد ليريح عضلاته لكن حواسه يقظة كالهررة .. ومن

جديد تثاءبت ونظرت لساعة معصمها .. إنها الثانية صباحاً ! معنى هذا أنهم سيوقظونها بعد ثلاث ساعات على الأكثر ! لابد أن تظفر بشىء من النوم بسرعة !

وبالطبع كانت هذه هى الطريقة المثلى للإصابة بالأرق ..

★ ★ ★

جاء الفجر . وصحت (عبير) على صوت الضجيج بينما الرجال يجمعون حاجياتهم .. ويتنكرون كالعادة فى ثياب فلاحين .. إنهم يتحركون بتلك السيارة الفان العتيقة وشاحنة صغيرة فى مجموعات من خمسة أو ستة ..

جاءها (جيفارا) وناولها جلباباً وحجاب رأس وطلب منها أن تتنكر فى هذا الزى ، وأشار إلى جدار قريب حيث يمكنها أن تنفرد بنفسها ..

ـ « لحسن الحظ أن ملامحك يمكن أن تكون عربية .. آخر شىء نريده أن تكون معنا صحفية غربية شقراء .. »

وسرعان ما تحركت السيارة وقد صارت (عبير) فلاحة عراقية لا يميزها شىء ..

السماء تكتسى باللون القرمزى الغريب الذى يميز قدوم الشمس ، بينما الرجال يغنون بصوت عال .. صوت متعهد .. بهذا يبدون طبيعيين أكثر من اللازم ..

ومن بعيد ترى (عبير) عربات مدرعة أمريكية تنطلق نحو وجهة مجهولة .. جلست فى الصندوق الخلفى للشاحنة وراحت تنظر إلى الطريق الذى يركض مبتعدًا من الخلف ..

ترى ما هى العملية القادمة ؟

* * *

٨ - الموقعة الأخيرة ..

اللقاء الثانى بين جيفارا وعبد الناصر تم بعد موقعة (خليج الخنازير) الشهيرة .. سبع سنوات بين اللقاءين .. لكن (جيفارا) كان قد تغير كثيراً .. لقد أرهقته الأعباء السياسية وبدا كأن هناك خلافاً وشيكاً مع (كاسترو) إن لم يكن تم فعلاً ..

قضى ليلته فى فندق (شبرد) بالقاهرة يلف السيجار الذى سيهديه لـ (ناصر) فى الصباح، ثم قابل الزعيم المصرى صباحاً فأخبره أنه عاجز عن الاستمرار فى عمله كوزير صناعة ..

كان (عبد الناصر) يفهم هذه العقدة .. عقدة الثائر الذى يصلح للقتال ويصلح لتدمير الحصون الأمامية، لكنه لا يستطيع أن يملأ هذه الحصون ..

شرح (جيفارا) لـ (عبد الناصر) أنه لا يستطيع الاستمرار فى هذه الأعمال البيروقراطية التى تضطره لمجاملة الاتحاد السوفيتى عدوه اللدود .. للمرة الأولى يعلن عن نيته فى أن يذهب للقتال فى الكونغو .. سوف يذهب هناك لمحاربة الشركات البلجيكية التى تآمرت لقتل (لومومبا Lumumba) ومنعته

من تأميم يورانيوم وطنه .. إن قاتل (لومومبا) معروف للعالم كله لكن أحدًا لا يجرؤ على الكلام .. (لومومبا) الشاب المتحمس المؤمن ببلده الذي ربطوه بحبل من عنقه وداروا به في شارع العاصمة قبل أن يقتلوه رميًا بالرصاص ..

قال له (ناصر) :

ـ « هذه مغامرة غير حكيمة ، ولسوف ينظرون لك على أنك طرزان الأبيض الذي جاء يساعد السود .. سوف ينظرون للون بشرتك ويقولون : ماله وأفريقيا ؟ هذا مجرد مرتزق .. هذا تدخل أجنبي سافر .. بصراحة لا أنصحك بتاتًا بالذهاب هناك »

ثم قال الزعيم المصري بخبرة الأعوام التي رسمت شيبها على فوديه :

ـ « أنت ثورة تمشي على قدمين ، لكنك لم تسأل نفسك ماذا بعدها ؟ الحب لا ينتهي بالزفاف بل تبدأ مرحلة جديدة من المشاكل .. إنجاب الأطفال وتربيتهم والحاجة إلى كسب المال .. كل هذا يجب أن يكون في ذهنك .. »

في هذه الزيارة قابل (جيفارا) (فاتن حمامة) وأبدى إعجابه بفيلم (الحرام) قائلًا :

- « أنا أعتقد أن الفن الجديد هو الذى يستخدم فيه الفنان حواسه كلها .. تقديم فيلم تحت مسمى الواقعية الاشتراكية هو عمل أبعد ما يكون عن الفن .. عندما لا يكون لدى المبدع فن فإنه يكتفى بتقديم معلوماته السياسية فقط .. »

سألوه :

- « هل الثورة جعلت الكوبيين يكفون عن الرقص ؟ »

ضحك بشدة وقال :

- « مستحيل .. لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تمنع الكوبيين من الرقص ! »

عندما عاد (تشى) إلى كوبا كان قد اتخذ قراره ..

اختفى ..

وكثرت الشكوك عن سبب اختفائه الغامض ، وتخرص البعض بأن الخلاف بينه و(كاسترو) تفاقم إلى درجة أن الأخير تخلص منه .. إلى أن أعلن (كاسترو) يوم ٥ أكتوبر عام ١٩٦٥ أن (جيفارا) قد غادر كوبا وترك مذكرة يشكر فيها الشعب الكوبى على ما قدمه له .. يتنحى عن كل وظائفه السياسية ويتنازل شاكراً عن الجنسية الكوبية حتى لا تسبب أفعاله حرجاً لكوبا :

- « فيدل .. الآن أستأذنك فى الرحيل وأستأذن الرفاق ، وأستأذن شعبك الذى صار شعبى .. ولكم جميعًا أقول : وداعًا .

- « لم تعد تربطنى بكوبا إلا روابط من نوع آخر لا يمكن للرسميات أن تقصمها »

فى العام ١٩٦٥ ظهر متنكرًا فى الكونغو .. حاول أن ينظم ثورة ضد البلجيكيين فى كينشاسا مستعينًا بمائة وعشرين رجلاً .. هذه المرة كان الفشل حليفه واضطر لمغادرة البلاد .. لقد صدقت نبوءة (عبد الناصر) بدقة تامة ..

بدأ (جيفارا) يفكر فى بوليفيا .. لم لا ؟

(بوليفيا) بلد مفتوح الحدود .. بمعنى أنه يشترك مع حدود خمس دول أخرى .. وهو بلد غير مهم .. بمعنى أن الاستعمار لن يدافع عنه بشراسة .. وظروفه تسمح بالثورة لأنه قريب من ظروف كوبا عندما هبط عليها الثوار .. كما أنه محكوم من طاغية هو (بارينتوس) .. حاجز اللغة هنا لا وجود له لأن الجميع يتكلم الأسبانية .

هكذا هبط على (بوليفيا) عام ١٩٦٦ بخمسين رجلاً متخذًا اسم (رامون) ، وبدأ يمارس نفس الأساليب التى

كان يمارسها فى كوبا .. وبدأ يحشد جيشًا من الفلاحين والشيوعيين ..

كانت هذه علامة الخطر بالنسبة لـ (بارنتوس) الذى لم ينس ما فعله (جيفارا) فى كوبا .. هذا الرجل المزعج يجب أن يموت .. وكالعادة كانت مصالح الطاغية تتفق بالضبط مع مصالح وكالة الاستخبارات المركزية؛ فلو ترك (جيفارا) وشأنه لأفلتت أمريكا اللاتينية بالكامل من هيمنة الولايات المتحدة .. دعك من كوبا المشاغبة وأزمة الصواريخ .. إلخ .. كل هذا جعل الولايات المتحدة غير راغبة فى تكرار التجربة لتتحول حدودها الجنوبية إلى معقل للثوار الغاضبين عليها .. هذه المرة لن تقع أخطاء ولن نتهاون .. (جيفارا) سوف يبقى فى بوليفيا أسيرًا أو ميتًا ..

فى البداية كان (جيفارا) موفقًا وكانت نسبة خسائره لخسائر قوات الطاغية ١ إلى ٣٠ ..

ثم بدأت الريح تجرى بما لا تشتهى السفن .. لم يجد العون الذى يطلبه، وفى الوقت ذاته عرفت المخابرات المركزية مكانه وبدأت تدريب البوليفيين على قتاله .. فرق البيريه الأخضر جاءت إلى بوليفيا وراحت تعلم القوم هناك أساليب حرب العصابات المضادة ..

لقد جردت حكومة (بوليفيا) قوة مكونة من ١٥٠٠ جندي كامل العتاد والتدريب لتظفر برجل واحد!

بدأت قواته تنزف ببطء وكانت النهاية في (لا هيجرا) عام ١٩٦٧ م ..

لقد سلم أحد رجاله يدعى (رودريجز) نفسه إلى قوات الحكومة، وعرض عليهم مقابل سلامته أن يخبرهم بمكان (تشي) .. وهكذا اقتاد قوات الحكومة المكونة من ١٨٤ رجلا في المسالك الجبلية الوعرة إلى حيث استطاعت تطويق ١٧ من رجال العصابات بينهم (جيفارا) ..

حوصر (تشي) في غابة وادي سيرانو جنوبي نهر (جراندي) .. دام الحصار أسبوعين وسط ظروف مروعة خاصة لو تذكرت أن الذباب والبعوض عوامل كفيلة بقهر الجيوش في حد ذاتها .. دارت معركة شرسة استمرت ست ساعات كاملة، واستعمل فيها السلاح الأبيض بوفرة .. جرح (جيفارا) في فخذه ونزف دمًا كثيرًا ..

في اللحظة ذاتها أحاط به أربعة من رجال الحكومة .. نظروا له حيث رقد عاجزًا عن الحراك، فقال ليريحهم من التساؤلات :

راحت ترمقه فى فضول وهو يبتلع دخان السيجار .. كل هذا غريب .. الآن (عبير) مع (جيفارا) فى مهمة خاصة فى العراق ! أليس هذا أقرب إلى الهلوسة ؟ لكنها (فانتازيا) على كل حال وليس هذا أغرب ما قابلته .

كانت تعرف أنه يستطيع أن يكون قاسيًا شأن من تشغله فكرة قهرية فلا يجد الوقت كى يكون حنونًا .. هناك أحكام إعدام أصدرها فى كوبا حاول (كاسترو) نفسه أن يقنعه بتخفيفها لكنه أصر ..

شعرت بالعربة تتوقف فصاح (جيفارا) فى الرجال الذين نام بعضهم :

- « هيا !! »

* * *

كانت السيارة المدرعة الأمريكية تتقدم عبر الطريق عندما انهمرت عليها طلقات الرصاص ..

توقفت العربة وانتظر من فيها بعض الوقت حتى هدأت الطلقات ، ثم ترجلوا ليقفوا على الجانب الآخر منها وأخرجوا أجهزة اللاسلكى .. يبدو أن معهم مترجمًا عراقيًا ..

الواحد منهم مدجج بالعتاد يحمل أطنانًا على كتفيه .. قفازات .. نظارة سوداء لزوم (الألاطة الاستعمارية) .. خوذة عالية .. الخلاصة إنها ثياب معقدة جدًا يبدو أن الغرض الرئيس منها جعله يبدو أضخم ..

جاءت عربات مدرعة أخرى وتوقفت في عرض الطريق .. ثم ظهرت دبابة من مكان ما تهز الأرض هزًا وببطء دار مدفعها بحثًا عن فريسة ..

الفريسة كانت سيارة نصف نقل مدنية صغيرة أصاب الهلع سائقها لما رأى هذه (اللجنة المرورية) المرعبة التي تسد الطريق، هكذا استدار هاربًا .. لكنه كان بالضبط في مجال مدفع الدبابة .. وانطلقت القذيفة لتتحول السيارة إلى شعلة من النيران في ربع ثانية، فلابد أن البائس لم يعرف أنه احترق ..

تصافح الجنود الأمريكان على طريقة high five التي يستعملونها عند إحراز أهداف السلة، وقال أحدهم في مرح :

- « ووووه ! كان هذا (كوووول) يا رجل ! لقد تحول الوغد إلى (باربيكيو) .. »

هنا عادت الطلقات تدوى فى الجو من جديد .. أحدهم يطلق الرصاص من هذه الجهة ..

اندفعت مجموعة من المارينز الأشداء نحو مصدر الطلقات وهم يتخذون أوضاعًا مرسومة بعناية كأنهم يمثلون فيلمًا .. خرجوا من الطريق لينزلوا فى حقل فارغ تجرى فيه ماعز مذعورة لدى رؤيتهم ..

هناك بناية فى وسط الحقل .. بناية عتيقة بنيت من قرميد .. ومن الواضح أن الطلقات جاءت منها ..

وقف أحد الرجال على جانب الباب ، ثم طوح قنبلة يدوية إلى الداخل ..

بووووم ! تصاعد الدخان من فتحة الباب وعلى الفور اندفع هؤلاء إلى الداخل وهم يطلقون النار بلا اقتصاد ..

لم يكن هناك أحد بالداخل .. لكن هناك عدة غرف لا بد من تفتيشها بالطريقة الأمريكية .. كل واحد يقتحم الباب بحذائه ثم يندفع إلى الداخل ليفرغ دفعة من بندقيته

الآلية بينما يتقدم زميله فى الممر ليفتش غرفة أخرى ..

بعضهم صعد إلى الطابق العلوى .. كل شىء يوحى بأن المكان كان مخزنًا للحبوب فيما مضى .. لا يوجد ما يثير الاشتباه لكن الحقيقة المؤكدة هى أن الطلقات جاءت من هنا ..

لقد صار بداخل البناية نحو عشرين من هؤلاء ..

كانت (عبير) هناك بين أشجار النخيل المتشابكة على بعد مائتى متر .. ترقب (جيفارا) وهو يمسح المشهد بنظارته المقربة ، وتلمح كفه ترتفع لأعلى ببطء .. بطء .. ثم تهبط ..

رآها الشاب الجالس جوار المفجر ، فنهض وبحذائه العسكرى داس الكباس ..

تسرى الإشارة الكهربية عبر السلك الطويل المتوارى بين الأعشاب .. ثم تبلغ شحنات الديناميت التى زرعت بسخاء فى قبو البناية . .

ودوى الانفجار المروع .. أعمدة البناية سيئة التصميم تهاوت أولاً وبدا أن هذا تم تصويره بالسرعة البطيئة ، ثم تحولت البناية إلى بسكويت فركه صبى شقى بين أصابعه ..

تصاعد الدخان لعنان السماء ، وبدا واضحًا أنه ما من أحد نجا من هؤلاء الذين دخلوا البناية ..

ومن الجنود الواقفين حول العربات المدرعة تصاعد الكثير من (الواو) و(أوه) مع الكثير من الـ shit .. لكن الخطة لم تنته بعد ..

لقد انهمر سيل من الطلقات على هؤلاء الجنود الذين ينظرون إلى الاتجاه الآخر ، وسرعان ما سقط أكثرهم مضرجين فى الدماء ..

هدأت دفقات الطلقات فاندفع صبيان صغيران يركضان بين الجثث ، ينزعان السلاح والبنادق الآلية من حامليها .. ولم تقتصر مهمتهما على هذا ..

قال لها (جيفارا) وقد تعالى صوت هدير المحركات حتى صار الهواء نفسه يترجرج :

- « اخفضى رأسك ! لقد جاءت (البلاك هوك) ! »

تهبط الطائرتان مثيرتين الغبار .. ويترجل رجال الخدمات الطبية لينقلوا من استطاعوا من جرحى على محفات إلى الطائرات .. البعض كان فى حالة سيئة جدًا لدرجة أنهم قاموا بتركيب السوائل الوريدية لهم وهم بعد على الأرض ..

همس (جيفارا) فى نشوة وهو يرمق المشهد :

- « (فيتنام) من جديد ! لم أر هذه المشاهد إلا فى (فيتنام) ! »

وأشعل سيجاره وإن لم يستطع التصويب عليه من فرط الحماس ..

بدأت الطائرتان ترتفعان .. سوف تضطران للعودة عدة مرات لأن هذه مجزرة حقيقية ..

صارت الطائرتان على ارتفاع خمسين مترًا، ثم دارت إحداهما حول الأخرى لتبدأ رحلة العودة إلى المستشفى الميدانى ..

من جديد ارتفعت يد (جيفارا) ملوحة بالسيجار ..

ومن جديد ضغط (منذر) الواقف خلفه زر شيء يبدو كأنه (ريموت كونترول) ..

وفى لحظة دوى انفجاران مريعان فى السماء وتناثرت شظايا الطائرتين فى كل صوب .. دخان أسود يجعلك عاجزاً عن رؤية يدك ..

إنها حيلة تلغيم أجساد الجرحى .. طبعاً لم يكن هناك وقت لفحص جسد من ينقلون إلى الطائرة جيداً وإلا لاكتشفوا القنبلة المثبتة تحت حوض كل منهم ..

فى هذه اللحظة وصل المقاتلان (سليمان) و(نايف) اللذان قد خرجا من النفق الذى أعداه تحت البناية .. كانا يفكران فى القيام بعملية انتحارية بحيث ينتظران دخول الأمريكيين إلى البناية ثم يفجران نفسيهما، لكن (جيفارا) لم يكن على استعداد للتضحية بجندى واحد من جنوده ..

هكذا تم تنفيذ حيلة النفق .. استدراج الأمريكيين للبناية ثم مغادرتها من تحت الأرض ..

قال لها (جيفارا) وقد شاعت ابتسامة على وجهه لم تَرَها منذ فترة :

- « لقد تعلمنا أسلوب الأسلاك الواصلة إلى ألغام عبر مسافات بعيدة من الجزائريين عندما كانوا يقاتلون الفرنسيين، وقد بلغوا بهذه الوسيلة درجة الكمال .. »

ثم صاح في الرجال :

- « بسرعة ! أريد قتل الأسرى !! »

انطلق رجاله يركضون نحو من بقى حيًا من الأمريكيين، على حين هتفت (عبير) في ذهول :

- « قتل الأسرى ؟ هل تضرب بهذا مثالاً أخلاقيًا ؟ »

تصاعد صوت الطلقات بينما قال وهو ينفث سحابة دخان كثيفة :

- « بل أضرب مثالاً على القسوة ! يجب أن يثير اسمك الرعب لدى هؤلاء القوم .. تلغيم جثث الجرحى والقتلى هو أسلوب أبعد ما يكون عن أخلاق الفرسان لكنه مفيد ،

ولسوف يجعلهم هذا يضيعون وقتًا ثمينًا فيما بعد مع جرحاهم .. إن هذا مهم لزحزحة روحهم المعنوية .. »

ومن بين الأشجار ظهر المقاتلون وهم يجرون أسيرًا ..

كان هذا هو المترجم العراقى الذى كان يصاحب الأمريكيين .. كان شاحبًا كثمرة الليمون يرتجف رعبًا ..

قال له (جيفارا) وهو يناوله سيجارًا ، بينما صدره يصفر بلا انقطاع :

- « اهدأ ! نحن لن نؤذيك .. فقط انصرف من هنا ولا تعمل مع الأمريكيين أبدًا .. »

قال الرجل وهو موشك على البكاء :

- « لقد .. لقد أرغمونى .. »

- « أعرف .. ولو كان عندى شك فى هذا لأعدمتك بنفسى هنا .. انصرف ! »

ثم صاح فى الرجال وقد صارت رائحة الجو لا تطاق من البارود والدخان والدماء والجازولين والعرق وكل شىء آخر :

- « فلنرحل الآن ! لابد أن طائراتهم قادمة لتحيل المكان جحيمًا »

قالت (عبير) :

- « لكنك أبدتهم جميعًا .. »

- « لابد من هارب هنا أو هناك يبلغ القيادة .. ثم إن انقطاع الاتصال رسالة في حد ذاتها .. »

- « ألاحظ أنك غيرت استراتيجية القسوة في دقائق .. لقد تركت هذا الأسير يرحل .. »

- « بل استراتيجيتي هي الوحشية المطلقة مع العدو والرحمة الكاملة مع الأهالي .. لابد من أن يدرك الأهالي ما لدى رجل العصابات من تفوق أخلاقي .. والآن كفي عن الثرثرة واركضي .. »

وهكذا انطلق الرجال بين أشجار النخيل ..

النخيل الذي يجلب الشؤم للأمريكيين سواء كان نخيل جنوب شرق آسيا أو نخيل العراق ..

وبعد خمس دقائق راحت الأرض تهتز وترتج وترقص .. ونظرت (عبير) إلى الوراء ما بين الأشجار فرأت أن جهنم قد حلت على الأرض .. الطائرات الأمريكية تفرغ كل ما تحمله من موت فوق البقعة التى تمت فيها العملية .. لن تندهش لو كانت هناك أسلحة نووية مستعملة فالأسلحة العادية لا يمكن أن توصلنا لهذه النتيجة ..

اليانكى العملاق الغاضب قد أدرك أنه خُدع ..

* * *

١٠- الخبيـــــر ..

الرجل الذى جاء كان يدعى (مورتون) .. (جيمس مورتون) .. وكانت أوراقه تقول إنه مهندس اتصالات.

طبعًا يمكن بسهولة أن تعرف أن هذا ليس اسمه الحقيقى .. من المستحيل أن تعرف أسماء هؤلاء القوم الحقيقية، فقط يمكنك أن تعرف أنه قاس وأنه فى الستين من عمره .. مع وجه بهذه القسوة لا تبدو السنون على حقيقتها .. لكن هذه هى السن الدقيقة على الأرجح .. يمكنك أن تميز هذا بين الشفتين الرفيعتين والفم الصارم والذقن المشقوقة بالطول والعوينات المخصصة لطول النظر من ذلك الطراز الأقرب إلى المرايا مما يجعلك لا ترى عينه أبدًا .. وكأنه وحش آلى له عدستان فى موضع العينين ..

من السهل أن تعرف أنه ليس مهندس اتصالات خاصة إذا تذكرت أن (آل كابونى Capone) أهم زعماء المافيا الأمريكيين كانت أوراقه تقول إنه تاجر أثاث مستعمل !

صافح مجموعة الجنرالات الموجودين هناك فى مركز القيادة بالمنطقة الخضراء .. قيل إن هذا المكان من قصور (صدام) السابقة لكنه قدر أنها إشاعة على الأرجح ، لأن المكان لم يكن على أية درجة من الفخامة ..

عرف على الفور (جون وايلدفاير) مسئول المخابرات المركزية هنا .. من الغريب أن بعض الأسماء ترتبط بمهنة أصحابها بشكل عجيب .. مثلاً رئيس القوات الأمريكية فى فيتنام كان اسمه (وستمورلاند) أى إنه قريب جداً من عبارة (المزيد من الأرض الغربية) .. (وايلدفاير) معناها (النار الشرسة) .. وهو يعرفه لأنهما مارسا معًا الكثير من العمليات القذرة عالية الاحترافية ..

جلس مسترخيًا فى مقعده وعقد يديه على صدره ، وبلهجة الواثق الذى لا يقبل مناقشة قال :

- « قيل لى إن الحرب تتخذ منحى غريبًا هذه الأيام .. »

ساد الصمت ثم نهض (وايلدفاير) وقال :

- « لقد عرفنا أساليب المقاومة العراقية وألفناها إلى حد ما .. صحيح أن السيطرة عليها مستحيلة لكننا نعرف على الأقل نوعية الخطر الذي نواجهه .. »

ثم أشار إلى جندي بحرية واقف، فأسرع بإغلاق النوافذ واتجه إلى جهاز كمبيوتر من طراز (لاب توب) موصل بجهاز عرض، وقام بتشغيل فيلم فانبعثت الصورة على شاشة كبيرة ..

على الشاشة ظهرت مجموعة من الحرائق والمعدات الأمريكية التالفة .. كأنها لقطات من جحيم (دانتي) أو الحرب العالمية الثالثة .. على حين دوى صوت (وايلدفاير) يشرح ما يرونه :

- « هناك تقنيات لا تتبعها المقاومة العراقية على الإطلاق .. تقنيات أبسط ما أصفه بها أنها عتيقة .. الأسلاك الموصولة بألغام .. أسلوب الرقصة الموسيقية .. أسلوب الكمائن التي يتم اجتذاب الجنود لها .. المقاومة العراقية لا تلغم جثث القتلى أو الجرحى .. هذه تقنيات قاسية لكنها فعالة جداً .. صار رجال الخدمات الطبية يترددون ألف مرة قبل نقل الجرحى للطائرات .. »

ثم ظهر على الشاشة رجل ممتقع يبدو عليه الرعب وفى يده سيجار غليظ . كان يتكلم بالإنجليزية مع أحدهم خلف الكاميرا .. سأله الرجل خلف الكاميرا :

ـ « كيف كان شكل ذلك الزعيم ؟ »

ـ « كان الرجال ملثمين ، لكنه نزع اللثام ليدخن سيجارًا .. كان ملتحيًا .. »

ـ « وما الغريب فى هذا ؟ الإسلاميون ملتحون دائمًا .. »

ـ « ليس هذا النوع من اللحى .. هذه أشياء لا أعرف كيف أصفها لكننا نحن العرب نميزها على الفور .. يجب أن تكون عربيًا لتفهم .. ثم لكنته .. أؤكد أنه ليس عربيًا .. »

سأله الواقف خلف الكاميرا :

ـ « ليس سوريًا أو مصريًا ؟ »

ـ « ليس عربيًا .. أكرر كلامى .. »

- « وهذا السيجار ؟ »

- « قدمه لي كي أهدأ .. هذا بدوره غريب .. الإسلاميون لا يقدمون السيجار للأسرى .. هو نفسه كان يدخن السيجار بلا انقطاع .. »

- « هل من شيء آخر ؟ »

- « نعم .. كانت هذه ألعن حالة ربو سمعتها في حياتي .. صدره لم يكف عن الصفير .. »

ومن جديد عادت اللقطات تتوالى على الشاشة ..

حينما انتهت الصور ، نظر (مورتون) إلى الرجال الجالسين وقد راح ضوء جهاز العرض يتألق على نظارتيه .. وسأل :

- « الاستنتاجات ؟ »

قال أحد الجنرالات الجالسين وهو يشعل سيجارًا :

- « هناك أطراف غير عربية تحارب في العراق .. لا أعرف كيف ولا من لكن الأمور تدعونا لهذا الاعتقاد .. بل إننا نرجح أنها أطراف غير إسلامية كذلك .. »

ـ « أطراف غير عربية ولا إسلامية .. هل تقترح الصرب مثلاً ؟ »

ـ « لا أقترح أى شىء .. أنا أذكر حقائق .. »

مد (وايلدفاير) يده ودس شيئًا فى يد (مورتون) فنظر له مليًا .. ثم قال :

ـ « سيجار .. هذا هو السيجار الذى أعطاه للمترجم العراقى؟»

ثم تشممه وغمغم :

ـ « إنه كوبى .. لا شك فى هذا .. وربما ملفوف يدويًا كذلك .. »

كان الأمر يبدو له مألوفًا .. مألوفًا إلى درجة تثير الغيظ ..

★ ★ ★

كان فى الثالثة والعشرين من عمره فى ذلك الوقت . عام ١٩٦٧ كان فى (بوليفيا) ضمن مجموعة من الجنود

الأمريكيين الذين يطلقون عليهم (فرق البيريه الأخضر) .. كانت مهمتهم محددة فى ذلك الوقت هى تدريب البوليفيين على حرب العصابات ..

قيل له إن هناك كتابين مهمين لفهم حرب العصابات عن حق .. الأول كتبه ماوتسى تونج والآخر كتبه جيفارا، وقد جمع (ليدل هارت) أستاذ الاستراتيجية الكتابين فى مجلد واحد .. لهذا كان هذا الكتاب مع كل واحد من رجال (البيريه الأخضر) ..

كان هدف هذه العملية التى يقومون بها هو اقتناص (جيفارا) بالذات، لكن كانت السياسة العامة للمخابرات الأمريكية هى ألا تتسخ يداها .. يجب تدريب كادرات محلية تحت اسم المعارضة للقيام بهذه العمليات .. عملية خليج الخنازير الفاشلة كانت من هذا الطراز .. مجموعة من المعارضين الكوبيين فى الخارج تم تدريبهم على عمل انقلاب، ثم أرسلوهم إلى خليج الخنازير فى كوبا بغرض تدمير نظام (كاسترو) .. لكن (كاسترو) أثبت أنه أكثر حنكة وحذراً من (باتستا) .. أو بمعنى أدق أنت لا تستطيع

أن تلعب حيلة على الساحر .. هكذا تمت إبادة هذه المجموعة وكانت فضيحة .. يقال إن هذه الحادثة عجلت بنهاية (كنيدى) لأنه لم يساند هؤلاء المتمردين الذين راح الكوبيون يتسلون عليهم ..

فى (بوليفيا) كان (مورتون) يشترك مع فريق من الأمريكيين فى تدريب رجال الجيش البوليفى على حرب العصابات المضادة .. كيف يفكرون مثل (جيفارا) ويخططون مثله ..

رباه !

كانت أياماً مجيدة .. أبلغ دليل على عظمتها أنها انتهت بجثة ذلك المارق معروضة على أغلفة الصحف العالمية .. كان هذا درساً من راعى البقر الأمريكى للعالم كله .. لا أحد يعبث بنا ..

اليوم يتذكر (مورتون) تلك الأيام وهو فى الستين من عمره، وقد صار من مستشارى وكالة الاستخبارات المركزية ..

لماذا يتذكرها ؟ لأن موضوع السيجار والثائر الملتحى ذكراه بتلك القصة ..

أغلب الظن أن هناك مجنونًا ما تأثر بـ (جيفارا) إلى حد التشبع .. وهو يحاول تكرار قصة حياته بالكامل .. المقاومة فى العراق سنية لكن يمكن تصور وجود عناصر ماركسية بينها .. بالنسبة للماركسيين لابد أن هذا المجنون شبيه (جيفارا) يبدو قديسًا ..

كل هذا سهل ومفهوم .. ما لا يمكن فهمه هو الجهة التى جاء منها هذا المتسلل .. لو كان غير عربى أو مسلم كما يقول الشاهد فإن أمريكا فى مشكلة .. هناك جهة أخرى قررت أن تفتح عليها النار .. فما هى تلك الجهة ؟

مهمته هى أن يعرف ..

* * *

١١ـ شيء مألوف ..

شقت الدبابة الأمريكية طريقها فى شوارع حى (المنصورية) ومن خلفها تسير عدة سيارات متمهلة بسرعة الرجل العادى بانتظار رحيل هذا الكابوس ..

(موروتن) كان يجلس جوار سائق سيارته المرسيدس، لأنهم قالوا له إن هذا أكثر أمناً .. الجلوس فى المقعد الخلفى يعنى أنه شخصية مهمة .. ولم تكن هناك أية علامات على السيارة تدل على أهمية راكبها ..

كانت هناك مدرعة محترقة إلى جانب الطريق .. قال لنفسه إن المقاومة العراقية نشطة بحق .. ثمانون عملية فى اليوم .. لو هلك جندى أمريكى واحد فى نصف هذه العمليات فلابد أن الولايات المتحدة تخسر أكثر من ألف جندى فى الشهر .. ثم يزعمون أن خسائرهم ألفا جندى فى ثلاثة أعوام ! هذا أقل من معدلات وفيات حوادث المرور لو بقوا فى الولايات المتحدة !، ومعنى هذا أن الحرب فى العراق من عوامل إطالة العمر ! أى هراء هذا ومن يصدق هذا السخف الذى لا يخضع لأى تدقيق منطقى ؟ كان أقرب من غيره إلى دوائر السلطة فى واشنطن ويعرف أنهم يتبعون سياسة جوبلزية صارمة : الكذبة يجب أن تكون هائلة وبالتالى

لا يجوز أحد على التشكيك فيها .. لا يمكن أن يكذبوا كذبة هائلة كهذه .. إذن هم صادقون !!

لكن منظر الدبابة المهيب وهى تنطلق عبر الشوارع متقدمة السيارات كان يوحى بالثقة .. كيف تهزم دولة صنعت هذه الدبابة وأمثالها ؟

يبدو أنه حسد الدبابة ، لأنه فوجئ بها تنفجر .. برجها طار فى الهواء ثم تصاعد منها دخان أسود كثيف وعلى الأرض تدحرج جندى يحترق كأنه قصاصة ورق ..

سمع المزيد من القصف .. والتفت إلى اليمين ليرى هؤلاء المقاتلين يبرزون من شارع جانبى ..

كانوا يحملون أسلحة غريبة الشكل عبارة عن مواسير من الخشب .. وفوجئ بأن شيئاً ينطلق من هذه المواسير ثم يصطدم بسيارة تقف أمام سيارته فتنفجر .. إنها زجاجات ! زجاجات مولوتوف !

نظر إلى الخلف .. فأدرك أنه فأر فى مصيدة .. لا يوجد حيز للتراجع بالسيارة ومغادرتها معناها الموت الأكيد .. قال للسائق وهو يتلفت حوله :

- « انطلق إلى .. انطلق إلى .. »

ولم يدر إلى أين ..

وفى اللحظة التالية رأى مجموعة من هؤلاء الملثمين تسرع إلى السيارة .. لم يدر ما حدث ولا كيف فتحوا الباب ولا كيف وجد نفسه وسط خمسة منهم .. إن فوهات المسدسات تكون باردة جدًا عندما تلتصق بذقنك ..

لكنه لم يفزع .. لقد رأى الكثير فى حياته ، لكنه كان قلقًا بصدد الخطوة التالية .. أم خطف فدية ؟ أم خطف فذبح أمام الكاميرا ؟ أم خطف فانقطاع الأخبار للأبد ؟

رأى ذلك الرجل الملتحى يتقدم منه فى ثقة .. ينزع اللثام عن فمه ليتنفس وكان معه حق .. تنفسه يشى بحالة ربو متقدمة جدًا فلا شك أن اللثام يزيد الأمور سوءًا ..

ما إن تكلم الرجل حتى أدرك أنه هو من تحدث عنه الشاهد .. اللكنة الأسبانية لا يمكن أن تميزها الأذن ..

لقد مد يده يتفحص أوراقه وقرأ بالإنجليزية :

ـ « جيمس مورتون .. مهندس اتصالات .. أمريكى .. »

ثم نظر له بعينيه الثاقبتين الخبيرتين ، فتظاهر (مورتون) بأنه ليس رجل استخبارات مركزية .. من دون كلمة أخرى ألقى الرجل بالأوراق فى وجهه وقال شيئًا بالعربية للرجال ثم ابتعد ركضًا مع رفاقه ..

لقد نجوت !!

عاد إلى سيارته والتقط أنفاسه للحظات .. بحث عن جهاز المحمول ثم اتصل بالجنرالات ..

- « هناك دبابة محترقة في المنصورية .. لقد رأيت تلك المجموعة .. أنا بخير .. كادوا يقتلونني لكن زعيمهم جعلهم لا يفعلون .. »

ثم أنصت قليلاً وقال :

- « انس أمر الدبابة .. الأمر جد خطير .. سوف أعود لكم بمجرد أن يتم إخلاء الطريق من الحطام .. أريد اجتماعًا عاجلاً .. »

ثم قال للسائق :

- « هل معك كيس من البلاستيك ؟ »

مد السائق يده في التابلوه وأخرج كيسًا يبدو أنه كان يحفظ فيه بعض الشطائر .. مد (مورتون) يده داخل الكيس واستخدمه كأنه قفاز .. التقط الأوراق المبعثرة على الأرض ثم قلب الكيس وأخرج يده منه كما يفعل بائع الجبن ..

* * *

قالوا له فى ذلك الاجتماع إنه أحمق وإنه مخبول وإن التقدم فى العمر قد ترك بصمات واضحة عليه .. قالوا له كل هذا فى تهذيب نظراً لمكانته لكنهم قالوه على كل حال ..

ظل يصغى وعلى شفتيه ابتسامة خافتة ، ثم قال :

ـ « هل انتهيتم ؟ »

ـ « تقريباً .. بقى أن نقول إننا سنرسل مذكرة بهذا الذى تقوله إلى واشنطن .. »

ظل صامتاً دقيقة .. كان يعرف أن عواطفه وانفعالاته لا تبدو على وجهه أبداً بفضل تلك العوينات الكثيفة .. كان يريد هذا .. إنها تجعله يبدو مبرمجاً بفتح الميم وبالتالى رهيباً .

قال لهم فى هدوء :

ـ « أنتم لم تروا (جيفارا) .. أنا رأيته فى عشرات الصور ثم رأيت جثته فى تلك المدرسة فى بوليفيا .. لن أنسى وجهه ما حييت وبرغم أن نحو أربعين سنة تفصلنا عن تلك اللحظة .. أؤكد لكم إن هذا الرجل لم يكن يقلده .. إنه هو ! »

صاح أحدهم فى ضيق وهو يضرب المنضدة بيده :

- « وتريد أن نشكرك على هذه المعلومات ؟! »

- « اصبر يا جنرال .. فى تلك الأيام طور (جيفارا) أداة لقذف قنابل كوكتيل المولوتوف .. خرطوشة ذات قضيب خشبى تثبت فى نهايتها قنبلة كوكتيل مولوتوف .. لقد حققوا دقة مذهلة فى التصويب تصل لنحو مائة متر وقد برهن عن نجاح فى تدمير دبابات العدو .. ألا تبدو هذه الطريقة مألوفة ؟ لم تستعمل المقاومة العراقية هذه الطريقة قط .. أشعر كأن الزمان عاد إلى الوراء أربعين عامًا .. »

- « ماذا تريد قوله ؟ هل وقعنا فى فجوة زمنية جعلتنا فى الماضى ؟ »

نظر لهم فى حيرة .. هو نفسه لا يجد الطريقة للتعبير عن أفكاره .. كأنه يحاول استرجاع لحن منسى منذ أربعين عامًا ..

مد يده فى جيبه وأخرج الكيس الذى يحوى أوراقه كلها، وقال :

- « أريد إرسال هذه الأوراق فى كيسها إلى الولايات .. »

* * *

ساد صمت رهيب بينما (وايلدفاير) يفتح التقرير القادم من الولايات المتحدة والذى وضع فى أعلاه خاتم يقول: (سرى للغاية).. لقد اقتضى الأمر يومين لكنهما مرا كالدهر على (مورتون)..

قال (وايلدفاير) بصوت خفيض رهيب:

- « فحص البصمات يؤكد كلام مستر (مورتون).. البصمات تتطابق تمامًا مع بصمات (أرنستو جيفارا) الذى احتفظنا ببصماته منذ بتروا يدى جثته فى (بوليفيا) عام ١٩٦٧! يطلبون عينات من الحمض النووى لإتمام المطابقة لكنى أرى أن هذا صعب.. معنى هذا أن يكون (جيفارا) الجديد فى أيدينا فعلاً.. »

من جديد ساد الصمت ثم قال أحدهم:

- « هل تعنى أنه لم يمت وإننا خُدعنا؟ »

قال (مورتون) فى غيظ:

- « يا لك من أحمق! لو عاش حتى اليوم لكان فى الثمانين من عمره، ولكان مبتور اليدين! »

ثم وقف ودس يديه في جيبيه وبدا واضحاً أنه يكلم نفسه قبل أي واحد آخر :

- « هناك من وصل إلى تقنيات الاستنساخ في ذلك الوقت من أواخر ستينات القرن العشرين ، واستطاع أن يوجد (جيفارا) آخر هو الذي نواجهه اليوم .. من هو ؟ كيف فعل ذلك ؟ هذا هو ما يجب أن نعرفه ! »

* * *

١٢ـ بلا جدوى ..

جلست (عبير) على مقعد خارج ذلك المقهى تراقب (جيفارا) ورجاله حيث جلسوا فى شكل دائرة .. رواد المقهى يصغون لهم فى صبر .. البعض يدخن النارجيلة والبعض وضع قبضته تحت فكه وراح يصغى .. البعض راح ينظر حوله فى توتر متوقعًا أن يسقط صاروخ (كروز) فوقهم الآن ..

(جيفارا) يجلس فى الوسط وسيجاره بين أصابعه ويطلق الدخان كثيفًا ، ويقول بلهجته العربية المهشمة :

ـ « لا يتحقق النصر النهائى إلا عندما يتم تحطيم جيش العدو تحطيمًا منظمًا ، وكذلك تحطيم كل المؤسسات التى تدعم العهد البائد .. إن الرأى العام العالمى وبعض مؤسسات الأنباء الأمريكية الصادقة منها وغيرها من وسائل إعلام البلاد الاحتكارية الأخرى ستبادر لمهاجمة الدولة المتحررة ، ومن الضرورى تنظيم العمل الثورى عن طريق خلق جيش جديد يمتاز بالمهارة التقنية والثبات فى

العقيدة .. وعلى القيادة أن تعد لحرب دفاعية لا بد لجيش الشعب من خوضها .. »

نظرت (عبير) إلى الوجوه فرأت ما توقعته .

لا أحد يفهم شيئًا .. لا أحد يهتم .. هذه الطريقة فى الخطاب عتيقة جدًا كانت تناسب الستينات ، أما اليوم فهى أقرب إلى طريقة كلام حزب البعث العراقى .. والعراقيون وقعوا طويلاً تحت سيطرة البعث ثم وقعوا تحت قبضة الأمريكان فلا يعرفون أيهما أسوأ ..

قال (جيفارا) وهو يشرب بعض الشاى :

ـ « علينا أولاً تحديد الجانبين المتحاربين فى حرب العصابات .. هناك أولاً الطبقة المستبدة (الأوليجاركية) الظالمة يمثلها الجيش النظامى حسن التسلح والانضباط ، وتتحالف معه البيروقراطية المتخمة .. أما فى الجانب الآخر فهناك شعب البلاد فى المناطق المعنية .. من هنا تكون حرب العصابات هى الصراع الذى تخوضه الجماهير متخذة من وحدات العصابات نواتها المسلحة .. »

هنا قال شاب نحيل فى عصبية :

- « لا أفهم حرفًا مما تقول ! »

قال (جيفارا) فى صبر :

- « لهذا أجلس هنا .. أنتم بحاجة إلى التثقيف الثورى .. رجل العصابات مصلح اجتماعى قبل كل شىء .. »

كان صاحب المقهى يقف جواره وهو يمسح يديه فى مريولة يعلقها على خصره ، فلما انتهى (جيفارا) من الكلام ، قال له فى حدة :

- « هل انتهيت من شرب الشاى ؟ »

- « نعم .. »

- « إذن أرجو أن تدفع حسابك وحساب رجالك وتنصرف .. لقد شبعنا تثقيفًا ثوريًا لهذا اليوم .. »

ثم صاح الرجل وقد بدأت نبرة غضبه تتعالى :

- « أولاً لا أحد يفهم حرفاً مما تقول .. ثانياً أنت ستجلب علينا الوبال لو سمع الأمريكيون أن المتمردين يجتمعون هنا .. سوف يبدءون بحرق المقهى ثم يسألون عما يجرى .. صدقنى أنا رأيت مواقف مماثلة .. »

مد (جيفارا) يده فى صمت إلى جيبه واخرج بعض قطع العملة ألقاها على المنضدة ،ثم أشار إلى الرجال و(عبير) كى يلحقوا به ..

سمعت صفير صدره فأدركت انه منفعل .. الانفعال يفعل مع الربو ما يفعله الدخان وأكثر ..

قالت له (عبير) وهى تلحق به لاهثة :

- « هذا متوقع .. كلامك غريب جداً بالنسبة لهم .. (أوليجاركية) ؟ يا نهار اسود ! لم يعد أحد يتحمل هذا الكلام أو يطيقه .. لو ظننت أنهم سيلوحون بالبنادق ويهللون ويلحقون برجالك فأنت مخطئ .. »

- « لابد من عدة جلسات تثقيف .. إن غبار البرجوازية يغطى أرواحهم .. »

ركبوا سيارة الفنان التى كانت تنتظرهم فانطلقت تنهب الطرقات نحو مقرهم الجديد قرب البصرة .. قالت له (عبير) وهواء الطريق يوشك أن يطير الحجاب الذى تضعه على رأسها :

ـ « اسمعنى .. هذه الأيديولوجية انتهت .. لقد تلاشى الاتحاد السوفيتى، والصين لا تريد أن تتورط فى مشاكل لأنها منهمكة بنهضتها الاقتصادية .. لم تعد هناك سوى دولة واحدة قوية هى الولايات المتحدة .. كان بوسع حركات التحرر فى الماضى أن تعتمد على الاتحاد السوفيتى والصين .. كانوا يقاتلون فى فيتنام والشرق الأوسط بالسلاح السوفيتى .. »

سعل كثيرًا وابتلع ريقه وبرغم هذا أخذ نفسًا عميقًا من السيجار وقال :

ـ « الاتحاد السوفيتى لم يكن ثوريًا .. كان صورة أخرى من الولايات المتحدة وإن تظاهر بالعكس.. »

ـ « نعم .. كلنا يعرف هذا .. لكنه كان ضروريًا من اجل التوازن .. أو كما يقول العرب : كان فى اختلافهما رحمة .. لقد توقف العدوان الثلاثى على مصر عندما أطلق الاتحاد

السوفيتى إذاره النووى الشهير، وانتصر مجاهدو أفغانستان على السوفييت بفضل الدعم الأمريكي لهم .. اليوم لم يعد هناك توازن وصارت هناك قوة واحدة طائشة كاسحة .. الأيديولوجية التى كنت تحارب من منطلقها قد تلاشت .. اليوم لم تعد هناك مرجعية للقتال فى العراق إلا من منظور إسلامى ويبدو أن هذه هى المقاومة الوحيدة الفعالة حاليًا .. هناك قوميون عرب لكن عملياتهم لا قيمة لها تقريبًا .. دعك من أنك أجنبى ولن يثق بك أحد .. لا مكان لك هنا ولن يصغى أحد لأحلامك عن اتحاد الشعوب المطحونة .. من المستحيل اليوم أن تقنع شابًا ألمانيًا بالقتال فى التبت لتحريره من الصين .. »

ثم أخذت شهيقًا عميقًا وقالت :

- « أنت رومانسى .. وككل رومانسى أنت ترفض الزمن الحالى .. ترفض الواقع .. والواقع يقول إنه لا مكان لك »

فجأة لاحظت أنها تكلمت كثيرًا جدًا لأنه راح ينظر لها فى حدة لبضع دقائق .. ثم قال :

- « هل تعرفين من أنا ؟ »

- « أنت ؟ أنت (سى عمارة) المتأثر جداً بـ (تشى جيفارا) .. »

نظر لها لمدة أخرى حتى قررت أن تخفض عينيها .. لقد تكلمت كأنه يعرف أنها تعرف كل شيء عن نشأته وعملية الاستنساخ .. فى الواقع لم تكن تعرف أى شيء .. لقد استنتجت .. لكنها كانت تفهم أنه لن يسمح بأية معلومات تتسرب عن شخصه الحقيقى ..

يجب أن تخرس ..

* * *

١٣- التشي يجب أن يموت ..

على الشاشة يظهر أبوان فقيران يضحكان وبينهما طفل فى الثالثة من عمره .. ملامح الأبوين والشعر الأسود الفاحم الناعم وخلفية الجبال تشى بشكل ما أن الصورة التقطت فى أمريكا الجنوبية ..

قال أحد الجنرالات الجالسين ونصف وجهه يتألق فى الظلام :

- « هل هذا هو (جيفارا) مع أبويه ؟ »

قال (وايلدفاير) رجل الاستخبارات المركزية :

- « بل هو (ريكاردو ألفاريس) الذى سيصير اسمه (جيفارا) فيما بعد .. هذه الصورة التقطت فى الأرجنتين عام ١٩٧٤ »

ثم تغيرت الصورة على الشاشة ليبدو رجل صينى عجوز .. ثيابه شبه العسكرية واللون الأبيض والأسود وطابع الصورة الحبيبى يشى بأنها التقطت فى عصر الثورة الثقافية فى الصين ..

واصل (وايلدفاير) الكلام :

- « هذا هو البروفسور الصينى (زينج لى وان) .. عام ١٩٦٦ كان مهتمًا بما يطلق عليه (الإيوجنيا الحديثة) ..

كانت تجاربه سرية ذات طابع عسكرى .. إن أساليبه غامضة بالنسبة لنا ، لكن لدينا كل ما يدعونا للاعتقاد أنه عرف الاستنساخ قبل أن نعرفه نحن .. »

ثم تبدلت الصورة ليظهر فيها إناء زجاجى به سائل ما وبدان بشريتان تجد جلدهما ..

- « يدا (جيفارا) .. لقد اختفت كل بقايا الرجل لكن يديه ظلتا فى الفورمالدهايد لفترة طويلة .. نحن نعتقد أن الأنسجة أخذت من هنا .. »

وعلى الشاشة ظهرت عدة صور مختلفة لمراحل مختلفة من حياة الفتى ..

- « هنا نرى (ريكاردو) وهو يدرس الطب فى الأرجنتين .. ثم تراه وهو فى كوبا .. من الواضح أنه تحرك فى ذات اتجاه (جيفارا) الأصلى .. هذا كان ضروريًا للخطة .. بعد هذا اختفى الفتى من أمريكا اللاتينية ، ثم يظهر فى العراق من يطلقون عليه (سى عمارة) .. يبدو أنه كون جيشًا من القومبين وبقايا الماركسيين وهو يحاول أن يكون نواة من المقاتلين ضدنا .. »

انتهى العرض ، فهتف أحد الجنرالات الجالسين :

- « هذا غريب جدًا .. أقرب إلى فيلم خيال علمى ! »

- « إنه فيلم بالفعل .. لكنه فيلم رعب .. »

هنا تدخل (مورتون) بطريقته العملية :

- « كما ترون أنا لم أكن أهذى .. عندما أقول إن هذا (جيفارا) فأنا أعنى ما أقول .. السؤال المهم الآن هو : هل لوجوده فى العراق اليوم خطر ما ؟ »

قال ذات الجنرال :

- « لا أعتقد .. إنه (خيال مقاتة) من الماضى .. لم يعد أحد مستعداً لسماع هذا الهراء الثورى اليوم .. المقاومة الخطرة هنا هى المقاومة ذات الطابع الإسلامى ولا أعتقد أنهم يمكن أن يتحالفوا معه أيديولوجيًا .. أهميته الوحيدة هى أنه طرفة علمية ممتازة .. هذا الرجل يجب أن يُدرَس ولا يُحارَب ! »

لم يعلق (مورتون) ونظر إلى (وايلدفاير) متسائلاً فقال هذا :

- « أرى الرأى ذاته .. »

وقال آخر :

- « نفس الشىء .. »

قال (مورتون) بدوره :

ـ « ربما كنتم محقين ، لكن يجب ألا ننسى أن هذا المارق يكلفنا جهداً ومالاً .. »

ـ « ما نريد قوله هو إننا لن نبدد جهدنا سدى .. سوف نحاول الظفر به كما نحاول الظفر بالمقاومة .. لكننا لن نضيع وقتاً معه .. »

صمت (مورتون) ..

والحقيقة أنه كان غير راض على الإطلاق .. لقد ولت أربعون سنة في لحظة ليجد نفسه ذلك الشاب ذا البيريه الأخضر في بوليفيا مع رجال (بارينتوس) عندما كان للشر اسم واحد : (تشى) .. يجب أن يموت التشى ..

يجب أن يموت التشى ..

لقد قتلوا التشى مرة .. لكه اليوم يفاجأ به حيًا يحارب بلاده بذات النشاط السابق .. يشعر بأن واجبه الوحيد هو أن يبحث عن جيفارا ويقتله من جديد .. لكن هؤلاء الصبية معدومي الخبرة لن يتركوه يفعل ذلك ..

قرر أن ينتظر ويرى ما يستطيع عمله ..

* * *

كان (جيفارا) يشرح لـ (عبير) تكوين قواته ، بينما هم ينتظرون على جانب الطريق ..

قال لها :

ـ « الفئة هي وحدتنا الأساسية .. وهي تضم عشرة مقاتلين يقودها ضابط برتبة ملازم .. كل أربع فئات تكون فصيلاً يقوده نقيب .. كل أربعة فصائل تكون رتلاً يقوده رائد .. »

ثم أشار لها إلى متاعه وقال :

ـ « معداتنا تتكون من الخيمة الصغيرة والبطانية والجاكت .. زوج من الأحذية وطعام مؤلف من الزبد ومعلبات وسردين .. مع حليب مكثف وسكر وملح .. الأحذية أهم جزء في ثيابنا .. يجب أن تكون متينة مريحة لأننا نمشي كثيراً جداً .. »

تذكرت (عبير) أن أول مصنع بناه (جيفارا) في كوبا كان مصنع أحذية ..

أردف (جيفارا) :

ـ « هناك أشياء أقل أهمية مثل الكتب والأطباق والتبغ وعلب الإسعافات الأولية .. »

ـ « وفرشاة الأسنان ؟! »

ـ « هذه تفاهات لا يجب أن تشغل حيزًا من حقائبنا .. »

أخيرًا بدأت الأرض تهدر ..

لقد جاءت الدبابات أخيرًا ..

صف طويل رهيب من الديناصورات العملاقة تمشى على الطريق الأسفلتى فتشققه .. وشعرت (عبير) بأن أمعاءها توشك على التمزق ..

رفع (تشى) يده فى حزم ثم هبط بها ..

فى هذه اللحظة انطلقت قذيفة البازوكا لتصيب الدبابة الأولى فى الرتل .. احترق البرج فتوقف الطابور ، وراح جنزير الدبابة الثانية يدور فى جنون من أجل العودة ، لكن الطريق كان أقرب لمضيق طبيعى .. المكان المناسب تمامًا للكمائن ..

وعلى الفور انطلقت قذيفة أخرى لتطير برج آخر دبابة فى الرتل ..

صاح (جيفارا) فى حماس :

ـ « إن رجالى يجيدون الرماية حقًا .. نحن حريصون على عدم تبديد طلقة بازوكا واحدة لأن ليس بوسع الجندى أن يحمل أكثر من ثلاث طلقات منها ! »

كان برج الدبابة الثانية يدور الآن فى جنون بحثًا عن فريسة ، وبرز من قمة البرج مجند زنجى يمسك مدفعًا ويطلق وابلا من الرصاص فى كل الاتجاهات .. فجأة ارتمى على مدفعه وقد تفجر رأسه ..

قال (جيفارا) من مكمنه :

- « كما ترين .. لدينا ثلاث بنادق بالتلسكوب وإن قناصينا لن يضيعوا فرصة كهذه .. »

ثم غمغم فى نشوة :

- « إن لدى العرب فرصة ذهبية قلما تتكرر .. لقد جاءهم الأمريكان فى عقر دارهم كى يسهلوا عليهم مهمة قتلهم دون مشقة السفر .. (جيفارا) كان يتمنى لحظة كهذه لكنه لم يحارب الأمريكان قط .. »

فى هذه الأثناء راحت طلقات البازوكا تنهمر على الدبابات .. بالفعل طلقة لكل دبابة كافية جدًا .. وراحت الطلقات تتناثر فى كل صوب لأن الدبابات تتصرف كثيران مجنونة حبيسة .. لكن التدمير كان كاملاً .. ووثب بعض الجنود محترقين يحاولون الفرار لكنهم سقطوا كالذباب على بعد أمتار من دباباتهم ..

بدأت الطلقات تهدأ فأشار إلى رجلين متواريين خلفهما ، فانطلقا نحو ميدان المعركة .. وفى لحظات كانا يجمعان السلاح من القتلى .. وقاما بتلغيم الجثث كالعادة ..

تم هذا بسرعة البرق ، وسرعان ما أصدر (جيفارا) تعليماته بالانسحاب ..

وبينما هم يبتعدون سمعت (عبير) الانفجار المميز .. نظرت للسماء فرأت الدخان الأسود .. هذه طائرة هليكوبتر لن تقوم بعمليات الإخلاء الجوى مرة أخرى .. يبدو أن قائدها قرر أن يجرب حظه هذه المرة ، لكن الحظ خانه ..

* * *

١٤- التشى يجب أن يموت .. ونكررها ..

عندما جلس القادة الأمريكيون مرة أخرى لمناقشة الخسائر كانت المنحنيات مرعبة ..

منحنيات المقاومة العراقية المعتادة محتفظة بثباتها .. من ٥٠ إلى ٨٠ عملية يوميًا .. لكن المنحنى الصاعد باطراد كان منحنى العمليات ذات الطابع الخاص التى اصطلحوا على تسميتها (عمليات التشى) .. برغم قلتها النسبية (عمليتان يوميًا) كان يكسب أرضًا جديدة وضحاياه يتزايدون يوميًا .. بالإضافة إلى أساليبه العنيفة .. أعنف بكثير من أساليب المقاومة المعتادة ..

وقد راح الجنود الأمريكيون يتكلمون عن (الشبح الأسبانى) الذى يحاربهم .. لابد أنهم سمعوا بعض الإشاعات من الأهالى ..

قال (مورتون) أخيرًا :

- « القصة واضحة .. لن نترك هذا الخطر يتفاقم .. هذا الرجل يجب أن يموت .. »

قال (وايلدفاير) رجل الاستخبارات المركزية :

استغرقت معرفة هذه الحقيقة شهراً ونصف حتى تم الوصول إلى المخطوطات الأصلية المنسية فى وزارة الدفاع الصينية ، ثم تهريبها للولايات المتحدة وترجمتها عن الصينية ..

فى النهاية استقرت علبة كبيرة من الكبسولات على مكتب (مورتون) .. أمسك بها وتفحصها .. لم تكن عليها بطاقة ما ولا شىء يشى بصاحبها .. وقدر أن بداخلها نحو مائتى كبسولة ..

رفع عينه نحو الشاب النحيل الواقف أمامه والذى يلبس قميصاً من نوع (الكاروهات) مع سروال جينز متسخ .. وسأله :

- « هل تتكلم الإنجليزية ؟ »

هز الشاب رأسه فى وجل (نعم أم لا ؟) فقال (مورتون) :

- « هل هذه هى علبة الدواء الوحيدة الموجودة مع (جيف .. أ .. مع (سى عمارة) ؟ »

من جديد هز الشاب رأسه فى وجل .. (نعم أم لا ؟)

قال أحد الضباط الجالسين وهو يقرأ من ورقة تحمل بيانات الحاسب الآلي :

- « محتواها هو ما توقعناه فعلاً .. هستيدين .. فالين .. ليوسين .. »

قال (مورتون) وهو يسترخي للخلف :

- « أيلد .. أنا سعيد بتعاونك معنا .. وعدتك بأنني سأسهل لك الهجرة إلى الولايات وسوف تُمنح مكافأة سخية ، لكن عملك لم ينته بعد بسرقة هذه العلبة .. ما هي قدرتك على إبدالها بعلبة تحوى مادة سامة ؟ »

ارتجف الفتى ، وبعد لحظة تردد قال :

- « لا أستطيع .. »

- « هل يوجد سبب واضح لهذا ؟ »

- « لا أستطيع .. إن عينيه ثاقبتان تكشفان كل شيء .. سوف يرى وجهي فيعرف الحقيقة .. لا أستطيع .. آسف يا جنرال .. نفس الأسباب التي جعلتني لا آخذ معي تلك الأزرار التي تكشف لطائراتكم عن مواقعنا »

قال (مورتون) في هدوء :

- « أنا لست جنرالاً .. أنا مهندس اتصالات .. والآن أن يكتشف أنك سرقت دواءه عندما ينظر فى عينيك ؟ »

- « السرقة تختلف عن القتل بالسم يا سيدى .. »

كان هذا منطقيًا ، وقد اعتاد (مورتون) أن يفهم منطق تلك الأمور .. للناس تصرفات غريبة .. لقد عرف رجلاً يجعل صديقه يلعب القمار بدلاً منه كى لا يتورط فى هذه اللعبة القذرة ، لكنه يدفع المال ويراهن ويختار الخانات .. فقط صديقه هو الذى يلقى الزهر ! هذه الألعاب النفسية التى يخدع بها الناس أنفسهم معروفة لديه .. لابد لمن يمارس مهنته أن يكون خبيرًا نفسيًا ..

عاد يسأل الفتى :

- « وماذا عن إفراغ هذه الكبسولات ؟ سوف نفرغها الآن من المسحوق ثم تحمل معك العلبة وتعيدها حيث كانت .. هل هذه مشكلة ؟ »

- « لا أعتقد يا سيدى .. »

هكذا ناول العلبة لضابط يقف جواره وأمره بأن يفرغ محتوى الكبسولات ويعيدها له ..

بالطبع سوف يتم ملء كل كبسولة بالسم .. لكن (أياد) لن يعرف هذا .. سوف يساعده هذا على أن يكون طبيعيًا عندما يقابل زعيمه ..

وابتسم (مورتون) في رضا ..

إنها تلك الأيام الحلوة تعود من جديد .. الفترة الذهبية للمخابرات الأمريكية عندما كانت تغتال الجميع في أركان الأرض .. السموم المجهولة وكل هذه الأشياء العذبة ..

إنه يستعيد شبابه بالمعنى الحرفي للكلمة ..

* * *

(عبير) كانت جالسة مستندة إلى بعض الأجولة في ذلك المخزن المهجور الذي اتخذوه للمبيت ..

كانت تكتب مذكرات الرحلة .. لم تطلع عليها (جيفارا) بعد لكنها قررت أن تعامله بشرف كما عاملها .. سوف تعرض عليه ما كتبت قبل أن تنشر حرفًا ..

سمعت ضوضاء وصخبًا فرفعت رأسها ..

لكنها لم تفهم شيئًا بعد أن يدًا خشنة جرتها من شعرها فشعرت بنفسها تسقط .. تسحل على الأرض سحلًا وهي تصرخ محاولة فهم ما يحدث .. لم تبك لأن الذهول جفف عينيها ..

صوت الصفير هذا ..

فى النهاية وجدت أنها فى منتصف المخزن بالضبط وأنها على ركبتيها ، بينما جيفارا يقف أمامها مصوبًا مسدسًا .. ماذا حدث ؟

كان الرجال يقفون حولها فى دائرة ، وينظرون لها فى مزيج من الحيرة والغضب والشفقة .. بينما كان الغضب يغزو وجه (جيفارا) كما لم تره من قبل ..

قال بصوت عال وهو يلصق مسدسه برأسها :

ـ « بناء على حكم المحكمة الثورية فإننى سوف أنفذ حكم الإعدام فيك لخيانة هذه الفئة المقاتلة ! »

نظرت له فى غباء فأردف :

ـ « أنت حاولت قتل التشى بالسم ! لقد ملأت كبسولات الدواء به ! »

أى دواء وأية كبسولات ؟

لا تعرف أى شىء يتكلم عنه ..

لكنها فى هذه اللحظة بالذات سمعت صوت (الكليك) .. إن الطلقة آتية حتمًا لو ضغط الزناد الآن ..

المصادر :

- محمد حسنين هيكل : عبد الناصر والعالم . دار النهار للنشر بيروت ١٩٧١
- ميخائيل رومان : ليلة مصرع جيفارا العظيم . مسرحيات عربية . الهيئة العامة للكتاب . ١٩٧١
- ماوتسى تونج وارنستو جيفارا : حرب العصابات تعريب خيرى حماد . دار الكتاب العربى . ١٩٦٧
- عدد من مواقع الإنترنت .

نهاية الجزء الأول

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة من أرض الخيال

تشى





اسمه (تشى) .. و(تشى) كناية عن أى مواطن أرجنتينى ، ولها ذات رنين لفظة (جدع) عندنا .. لكن (عبير) سوف تقابل (تشى) من نوع خاص جدًا هو رمز الثورة فى القرن العشرين ، وهو صداع وكالة المخابرات المركزية .. وهو ملصق فى غرفة كل شاب ثائر ، وصورة جاهزة لترفع فى أية مظاهرة .. هو حلم رومانسى جميل لكنه ككل الأحلام الرومانسية عسير التحقيق ..

الرواية القادمة

الحالم الأخير

الثمن فى مصر ٣٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

